


د. محمد علي الكروبي



دیدرو • بطای • فو کو

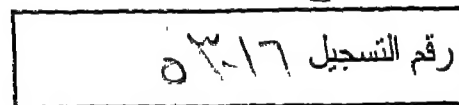
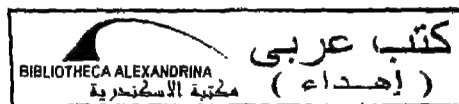
اهداءات ٢٠٠٢

الدكتور / محمد علي الكردي

 BIBLIOTHECA ALEXANDRINA مكتبة الإسكندرية	کتابت عبر عربی (ام-طبعة)
	رقم التمسيد

قضايا ووجوه فلسفية

بطاي - فوكو - ديدرو



الغلاف للفنان خلف طابع

دكتور
محمد علي الكردي

قضايا ووجوه فلسفية
بطاي - فوكو - ديدرو

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والإسكندرية
ومكتبة المعارف ببيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٨

تمهيد

تتناول في هذه المجموعة من الدراسات عدة قضايا ومشاكل أثرت بشكل واضح وقوى ليس فحسب على تطور الفكر الفرنسى المعاصر، وإنما أيضًا على الفكر الأوروبى والعالمى. فنحن مع "جورج بطاى" فى إطار الفكر الحيوى الذى لعب دورًا كبيرًا فى تأسيس الفكر الفلسفى الأوروبى خلال القرن التاسع عشر وحتى انبثاق البنيوية وما تمخض عنها من رؤى وأيديولوجيات ثقافية مغلقة. ويولد الفكر الحيوى، فى نظرنا، مع انبثاق علوم الحياة وتطورها ملازمة لفكر التطور عند "دارون" وقيام الرؤى التاريخية فى مجمل النشاطات الأدبية (تطور الأنواع الأدبية والشعرية عند "فيكتور

هوجو" فى "مقدمة كرومويل" والفكرية (المراحل الثلاث عند "كونت" مؤسس علم الاجتماع) والاقتصادية (تطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج عند "ماركس")؛ كما يتأكد مع أيديولوجيا الدفعات والليبدو التى تتبلور فى تركيبة اللاشعور عند "فرويد"، ومن خلال إرادة القوة وتجاوز المفاهيم الأخلاقية للخير والشر عند "نيتشه"، كما يبرز أيضاً من خلال فلسفات الإرادة عند "شوبنهاور" وشاعرية الطاقة عند بعض الروائيين على شاكلة "بلزاك" أو "ستاندال". وترتبط فلسفة الحياة عند "بطاى" بدفعة الغريزة ونزعة خرق القانون وتجاوز المحرمات، وهو ما يربطها، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بدور الثقافة ووظيفتها الكابتة والضابطة للدفعات الحيوية والموجهة لها، فى الوقت نفسه، نحو العلم والبناء الاجتماعى بهدف تأسيس الحضارة واستمرارية الوجود البشرى عن طريق إرجاء المتعة.

أما الدراستان الأخيرتان فترتبطان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً، وذلك بقدر ما يشكل "خطاب الجنون" عند "ديدرو" كاتب وصانع "الموسوعة الفلسفية الكبرى" خلال القرن الثامن عشر، ملحقاً تفسيرياً لظاهرة الجنون، كما درسها وحللها "ميشيل فوكو" فى مبحثه الكبير عن "تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى". وليس

من شك في أن أهمية "فوكو" لا تأتيه فحسب من طرح قضية الجنون في صورتها التاريخية المقوضة لصرح العقل أو "اللوغوس" الغربى، الذى يطمح فى أن يكون النموذج الأوحى لما يجب أن يكون عليه العقل البشرى، خاصة فى عصر "العولمة"، وإنما أيضاً فى إبراز الخلفية "الأركيولوجية" التى قامت عليها العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتى كانت بالنسبة لها بمثابة قواعد أو شروط الإنتاج المعرفى فى ظل ظروف تاريخية محددة، وهى الظروف الموضوعية التى نشأ وتأسس فى ظلها المجتمع الغربى الحديث.

ولقد أردنا فى مبحثنا عن "فوكو" تقديم صورة موجزة ولكن شاملة لحياته العامة والفكرية، وذلك حتى يستطيع من لم يطلع على كتابنا الضخم عنه (نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، ١٩٩٢) الإمام بالخطوط العريضة لأهم مباحثه التاريخية والفلسفية عن الجنون والطب العيادى والسجن والسيطرة والجنس والأخلاق.

ولعل هذا المبحث يبدد -بصفة نهائية- "الإكليسيهات" الفكرية السائدة عن "بنوية" ميشيل فوكو، ويبرز -من ثم- التحولات والتمفصلات الكبرى التى هيمنت على تكوين فكر الكاتب وحددت تراوح هذا الفكر بين "حفريات المعرفة"

و"جينياولوجيا السلطة" فى ضرورة تفكيكية لم تستبعد بآخرة طرح قضية "الذات" نفسها، ولكن من منظور "وظيفى" بحث.

أما طرح قضية الجنون وخطابه فى إحدى كتابات "ديدرو" فهو يسمح لنا بالربط بين التفسير الذى طرحه "هيجل" حول هذا الموضوع فى مؤلفه العظيم "ظاهريات الروح" وبين الدراسة "الحفرية" التى قدمها "فوكو" فى تأريخه لظاهرة الجنون والتى حاول أن يثبت فيها عن طريق "القطعة المعرفية" الكيفية التى تنشأ بها المفاهيم والتصورات فى ظل آليات وممارسات قد تكون بعيدة تمامًا عن المجال المعرفى نفسه. ذلك أن الجنون لم يكن فى صورته المرضية وليد تطور العلوم النفسية والطبية وقدرتها، مع الوقت، على فهم أعراضه وأسبابه بقدر ما كان نتاجًا لعوامل القهر الاجتماعى وأساليب القمع السياسى التى مارستها الطبقات البرجوازية الصاعدة إبان نشأة وتكوين الدولة الليبرالية الحديثة.

والغريب حقًا أن يلتقى - كما سوف نرى - التفسير المثالى للتاريخ عند "هيجل" مع التفسير "الأركيولوجى" الذى يتسم به منهج "فوكو" والذى يريد هذا الأخير أن يكشف بواسطته القواعد التاريخية المسكوت عنها، ليس فحسب فى عمليات إنتاج المفاهيم

والتصورات المعرفية، وإنما أيضاً في تعديل المضامين الأخلاقية للأفعال وفقاً للاستراتيجيات الاجتماعية والسلطوية السائدة.

د. محمد علي الكردى

الإسكندرية في ١٥/٤/١٩٩٨

١. جدلية الموت والحياة

عند جورج بطة

١ - جدلية الموت والحياة

عند جورج بطاى

ليس من شك فى أن الإشكالية الفكرية التى يدعو إليها مفكر كبير فى حجم "جورج بطاى"^(١)، وإن كان لم يحظ حتى الآن باهتمام يذكر من قبل الباحثين أو المفكرين العرب، إشكالية محيرة ومقلقة على حد سواء. ولعل هذه الحيرة التى يثيرها مثل هذا المفكر هى، فى حد ذاتها، عامل هام من عوامل شحذ الذهن ودفعه إلى طرح التساؤلات من منظور المغايرة والاختلاف، وهو المنظور الجدير حقًا كما علمنا "فوكو"، بإثراء رؤيتنا لأنفسنا وللآخرين.

إن "بطاى" يعد بحق فيلسوف المفارقات، المفارقات العويصة التى تضع أدبه وفكره على تخوم المحذور، أى فى هذه المنطقة الغائمة الشائكة التى تتأرجح بين الشعور واللاشعور أو بين الوعى واللاوعى.

لاغرو، من ثم، أن يكون لنهجه الفكرى هذه الخصوصية الفريدة التى تجعل من عالمه الأدبى والنظرى عالماً بالغ التميز، وربما الغرابة. ذلك أن هذا النهج، على خلاف ما نعرفه ونألفه من الطرائق العقلانية التى يبنى بها العلم موضوعاته على الدقة والاتساق، يقوم بطريقة جد مؤثرة على إدراك المغاير، أو بعبارة أخرى، هو محاولة تكاد تكون مستميتة للإمساك بما يفلت من قبضة المعرفة الموضوعية أو الظاهرية البحث.^(٢)

على هذا النحو، سوف نرى "بطاى" يميل، فى مجال التنظيم الاقتصادى، بدلاً من التركيز على مفاهيم المنفعة وآليات الإنتاج، إلى صياغة ضروب من الإنفاق المظهرى أو المبدد للطاقة البشرية؛ وفى مجال علم الاجتماع، إلى دراسة عوامل التفكك والاختلاف بدلاً من تسليط الضوء على عناصر التكاتف والاتلاف؛ كما سيُعنى، فى مجال سيكون شاغله الأكبر ومحور تأملاته العميقة، وهو مجال الدراسات الدينية وظاهرة "القداسة" (Le Sacré) بما يسميه "أقطاب التنافر".^(٣)

ولتفصيل بعض ما أجمعنا نقول: إنه إذا كانت فكرة المنفعة تشكل القاعدة الأولية لاقتصاديات السوق، فإنها تفترض -لاشك- ألواناً من التوازن بين الإنتاج والاستهلاك؛ كما أنها إذا كانت تهدف إلى الحفاظ على بقاء المجتمع واستمراره، فإنها سرعان ما سوف تتطلب إقصاء مبدأ "اللذة العنيفة" لما توسم به هذه الأخيرة من جنوح مسترذل وانحراف مشين، وذلك تذرُعاً بالدعوة إلى الاعتدال وإرجاء المتعة إلى

حين يمكن توفيرها للجميع. ولما كانت هذه التصورات النفعية البحث تُخدم، في المقام الأول وفي إطار "مبدأ الواقع"، مصالح الطبقات السائدة، فإن الكاتب يكشف لنا الغطاء عن وجود نوع من الرغبة اللاواعية والمكبوتة لدى الأفراد والجماعات البشرية على السواء، وهي ما يطلق عليها اسم "نزعة الإنفاق" أو التبديد، وهي نزعة تتطابق، في نظره، مع عدد من الدفعات العارمة التي تشبه إلى حد ما حالة "الشبق". وغالبًا ما تبرز هذه الدفعات اللاإرادية نحو الضياع والتبديد أو "الإنفاق من أجل الإنفاق" - كما يقول - عبر بعض الظواهر المألوفة مثل حب الظهور والإنفاق والبذخ والشهوة إلى الاقتتال والهوس الديني وكل صنوف النشوة الحسية والوجدانية.^(٤)

ولعلنا نلاحظ، في مجال الاقتصاد، أن النظام الرأسمالي قد جعل، منذ ظهور الطبقة البرجوازية إلى حيز الوجود على أقل تقدير، من المنفعة أو الفائدة الغاية الاجتماعية العليا للإنتاج، إلا أن هذه الظاهرة لا تشكل، كما يبدو، القاعدة العامة؛ إذ أن عملية الإنتاج كانت تخضع في كثير من المجتمعات السابقة على اقتصاديات السوق لمبدأ "الإنفاق غير المنتج" أو الإنفاق الترفي، وهو ما كان يشكل سمة مميزة للطبقات العليا أو السائدة. ومن هنا، نفهم الارتباط التقليدي بين الثروة والسلطة والجاه. بل وينهب الكاتب أبعد من ذلك حينما يؤكد، استنادًا إلى دراسات عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا الشهير "مارسيل موس" عن

الهبة^(٥)، أن الاقتصاد البدائي لم يعرف نظام المقايضة بالمعنى الذى نألفه، إذ أن هذا المفهوم لم يكن يدل بأية حال من الأحوال على التبادل، ولم يكن يهدف قط إلى الاقتناء؛ فالمقايضة كانت تتطابق، فى الأغلب، مع ظاهرة العطاء أو الهبة، أو ما أسماه "موس" "البوتلاتش" (Potlatch)^(٦)، وهى عبارة عن رغبة قوية فى الإنفاق التتافسى. وهذا ما يفسر لنا، فى نظر "بطاي"، كيف استطاعت ظاهرة مثل الإنفاق الترفى أن ترقى -على الأقل- إلى حين ظهور الطبقة البرجوازية بمعابرها النفعية- إلى مرتبة القيم الإيجابية، وكيف ارتبطت لدى طبقة النبلاء والسادة بمبادئ الشرف والمجد وعراقة المحتد.^(٧)

أما فى مجال "المقدسات" البدائية، التى تقوم فى أغلبها على مفاهيم المحايضة (Immanence) والحلولية (Panthéisme)، فإن الكاتب يربط بين مبدأ "الإنفاق الترفى" وبين ما يسميه "القداسة السوداء" وهى التى تتطابق -فى نظره- مع منطقة "الرجس" أو "الدنس" فى الديانات الوثنية القديمة^(٨). ويبدو أن هذا الضرب من القداسة، الذى يختلف كل الاختلاف عن مفهوم الألوهية القائم على مبدأ العلو (Transcendence)، هو ما سوف ينتهى بالاختلاط مع ظاهرة السحر، وبوجه خاص، مع ظاهرة السحر "الأسود" تمييزاً له عن السحر "الأبيض" الذى كان يرتبط بالجانب الخثير فى العبادات القديمة. مهما يكن من أمر، فإن إنتاج هذا النوع من القداسة المشوب بالقلق والتوتر

كان ينصب على نفايات الجسم وبعض إفرازاته مثل دم الحيض، أى على كل ما يشكل فى الواقع موضوعات التحريم أو "التابو". ومن الواضح أن الغاية من هذا التحريم كانت حماية الجماعة من "تجاوز الحد فى الإنفاق" وفقاً لتعبير الكاتب، أى من التردى فى حبال الشر والجريمة؛ وذلك بقدر ما تمثل الجريمة خرقاً لحدود "الإنفاق" المسموح به للحفاظ على توازن المجتمع وتوافقه مع القوانين الكونية.

ومع ذلك، يزعم الكاتب أن فكرة الحد أو الحدود، التى تشكل موضوع التحريم، لا فعالية لها على المستوى الانفعالى الذى يمثل لب ظاهرة القداسة بما تثيره من توجس وخاوف وهلع وقلق، إلا ملازمةً لنقيضها، أى لبدأ "الانتهاك" (Transgression) أو نقض التحريم، الذى يُعرفه "بطاى" بقوله:

«إن الإنسان لا يستطيع، من جراء ذلك، أن يحيا من غير أن يحطم الحواجز التى يقيمها على طريق حاجته إلى الإنفاق، وهى حواجز لا تقل فى أى من جوانبها رهبة عن المنيّة. ذلك أن وجود الإنسان كله، أى ما يعادل مجمل إنفاقه لطاقته، يتحقق ها هنا فيما يشبه الاضطرابات المصطنعية التى يتراوح فيها مصيره بين الموت وبين أكثر دفعات الحياة توتراً»^(٩).

على هذا النحو، تبرز لنا ظاهرة الحياة عند "جورج بطاى" فى صورة جدلية ناقصة أو ثنائية بالغة التوتر بين طرفين متصارعين: مبدأ

الحد والمنع والحظر من جهة، وانتهاك هذا المبدأ من جهة أخرى. وليس من شك في أننا هنا بصدد ثنائية تشكل لُحمة الحياة وسداها، بل بصدد جدلية الحياة تؤكد ذاتها ووجودها في قلب الموت نفسه^(١٠). ويبدو لنا أن هذه الفكرة الأخيرة، فكرة ارتباط الحياة بالموت، كما يتصورها "بطاي" في هذا السياق، تتطلب منا بعض الحيلة والحذر. ذلك أنه يقيم، في الواقع، تصوره لظاهرتي الموت والحياة على مستويين جد مختلفين: مستوى الوجود الكلي المتصل تارة، ومستوى الوجود الفردي المنقطع الزائل تارة أخرى. ولا مرأى في أن ظاهرتي الموت والحياة يصعب اتماؤهما، في كل من الحالتين أي الجزئية والكلية، إلى الإطار المرجعي نفسه، كما يتعذر التقاؤهما بطريقة خطية مستقيمة. ومن ثم فإن كل تحول أو انتقال من المنقطع إلى المتصل، أو من الفردي إلى العام أو الكلي لا يمكن تصوره إلا حذرًا وتخمينًا. أضف إلى ذلك، أن قبول هذا التحول، وإن كان يبدو متفقًا مع "دفعه الموت" عند "فرويد" كواقع أو كصفة ملازمة للحياة البشرية - كما هو الحال عليه عند "بطاي" - معناه قبول التناقض الجذري الذي يفصل الموت عن الحياة. لذلك لا نعتقد أن مبدأ انتهاك الحدود والمحرمات، الذي قد يدل فعلاً على فيض الحياة وتأكيدها في فعل التجاوز نفسه، يمكن أن يشكل رغبة في الموت أو الفناء على مستوى الفرد وتأكيدها، في الوقت نفسه، للحياة على مستوى الوجود الكلي. إن هذا التناقض لا يمكن تجاوزه أو قبوله

فعلاً، إلا إذا قبلنا بأن رغبة الموت لا تعنى، فى نهاية الأمر عند "بطاى" إلا رغبة الحياة نفسها فى دفعتها التى لا تكاد تجبر وتستقر حتى تتحفز وتهلر من جديد.

مهما يكن فهم "بطاى" إذن لظاهرة الموت على مستوى الواقع أو المجاز، يمكن القول بأن هذه الظاهرة تحتل -من غير شك- مكان الصدارة فى أذهان وفكره. بل نكاد نقول بأن صورة الموت هى الهاجس الأول للكاتب المعنى باختبار أغوار النفس البشرية وسير ظلمات "التجربة الداخلية"، وهى تجربة "صوفية" من نوع فريد لا يتوخى فيها صاحبها الفناء فى الذات الإلهية أو فى الفيض النورانى للملكوت الأعلى، وإنما يسعى فيها، وسط أحاسيس الفوضى والتخبط والجيشان، إلى الهلكة والضياع وتبديد الذات عبر نوعين من الفقد: فقد "الزمان" وفقد "الشعور".^(١١)

وليس من شك فى أن هذه التجربة، التى تذكرنا بما يسمى فى التراث المسيحى باللاهوت "السلبى" ليست منبئة الصلة بالتجربة الروحانية الإيجابية أو "المتعالية" لأنها تصطدم -مثلها تماماً- بتجربة الجسم أو الجسد بما يتطلبه من ممارسات واجتهادات يُقصد بها إلى قمع الشهوات وكبت الغرائز؛ إلا أن الفرق هنا -وهو جوهري- يخص طبيعة العلاقة بين الجسد والروح؛ إذ أن الغاية، التى يرمى إليها "بطاى" فى تجربته الصوفية الفريدة، ليست تحقيق خلاص الروح وصفاتها وارتقائها،

وإنما الموت والفناء عن طريق العنف وتبديد الطاقة، أو بعبارة أخرى عن طريق العطاء اللامتناهى للذات. ذلك أن التجربة الداخلية، كما يريد لها "بطاى"، تقوم على بث أحاسيس القلق والهلع والفرغ فى النفس، وعلى العنف المبدد للرتابة والجمود اللذين يألفهما الإنسان فى حياته اليومية، أو قل على العنف القريب من فعل الموت الذى ينتزع الفرد من حالته المحدودة ليلقى به - فى لحظة من لحظات التأجج والفوران - إلى خضم الشمولية الكونية. إلا أن العنف، كما يعود كاتبنا إلى القول، اغتصاب للذات واعتداء على خصوصيتها الحميمة، بل ألم وعذاب ومشقة. من ثم، فهو لا يُراد أبداً لذاته، ولا يشكل هدفاً أو غاية فى نفسه. إن العنف فى نظر "بطاى" أقرب ما يكون - على شاكلة القربان البشرى فى الديانات القديمة - إلى الإعداد الدموى للموت والهجر المؤلم للذات من أجل حميمة أكثر غوراً واتساعاً، من أجل حميمة تكاد تشمل الكون بأسره. من ثم، يُقيّم "بطاى" تجربة العشق فى عنفوانها على أنها "انفتاح على الموت" كما يُقيّم الموت بأنه "انفتاح على عدمية الديمومة الفردية" (١٢).

ومع ذلك، ألا يحدث أحياناً أن تكون حالة الألم والعذاب مصدر لذة فى حد ذاتها، وأن تشكل المكونة المازوكية السمة الغالبة لتجربة العشق سواء فى ذاتها أو معكوسة فى الفعل السادى؟ ومع نفورنا من الموت واستنكارنا لتعاضده مع قوى الحياة فى تدفقها الهادر ألا يحدث

أحيانًا أن يتجارب الحِمام مع أعمق مطامحنا الحميمة فى الراحة والسكينة، أو فيما يُسمَّى بنزعة "النرفانا" التى قد تشكل صورة لاواعية من رغبة العودة إلى الأم، رحم وأساس كل رغبة؟ إننا هنا، من غير شك، أمام حركة تتراوح بين دفعة الحياة ("إيروس") ودفعة الموت ("ثانتوس") وحركة تتأرجح بين النزعة السادية والنزعة المازوكية؛ ولاشك أن تضافر كل ثنائية من هاتين الثنائيتين ضرورة حيوية - بالرغم من اختلاف غاياتهما فى زعم "ديلووز"^(١٣) - لفهم أعمق مكونات سريرتنا.

يا ترى كيف يربط "بطاى" بين مفهومى العنف والموت، وبين مفهومى التحريم ونقض التحريم؟

إن العلاقة بين التحريم وانتهاكه وبين الحياة المنظمة والمنضبطة بواسطة القواعد والحدود من جهة، وبين العنف أو الموت المؤقت الذى يحدثه هذا العنف من جهة أخرى، ذات طابع جدلى بالغ التوتر. ذلك أن التحريم يحول دون العودة إلى الطبيعة أو دون الأوبة إلى حياة الرغبة المكبوتة واللذة الموجلة تحت ضغط الضرورات الموضوعية التى يفرضها التنظيم الاجتماعى للعمل^(١٤). أما عملية نقض التحريم، التى تشكل الجانب السلبي من الرغبة، وذلك بقدر ما تعمل على تحديد حالة الخوف والقلق الملازمة لانطلاقتها، فتعمل على كسر الحدود وخرق المحرمات، لا لمجرد هتك هذه الحواجز والعقبات ولكن لكى تفضى عليها

-بفعل التجاوز نفسه- ضرورة الوجود مرة أخرى. ومن ثم، تكتسب هذه العملية، بما تطلقه وتفجره من طاقات وشحنات نفسية مكبوتة، قدرة هائلة على كشف آليات "الفقد" و"التبديد" أو "العطاء" التى تقوم عليها بعض الظواهر المتزاوجة بين الطبيعة والثقافة، وعلى رأسها فى اهتمامات الكاتب، ظواهر العشق والجنس والقداسة.^(١٥)

ويبدو أن وظيفة التحريم، على مستوى المعرفة الداخلية، أى المرتبطة بالحياة الوجدانية وغلجاتها المتدافعة، هى إقصاء موضوع القلق وما يصحبه من حالات التوتر والرغبة، إذ أن هذا الإقصاء جد ضرورى لتحقيق الرعى بالذات ونقل هذه الذات من مستوى الدفعات المتخبطة والمتلاطمة إلى مستوى الإدراك والتنظيم والوضوح الذى يسمح للإنسان بتأسيس العلم والمعرفة وبناء الحقائق الموضوعية لهذا العالم. إلا أن انبثاق مبدأ التحريم فى قلب عملية الانتهاك غالباً ما يتخذ صورة العقبة الخارجية أو الحاجز المثير للقلق والتوجس، أى لتلك الأحاسيس الملازمة بالضرورة لكل ممارسة للإثم واقتراف للخطيئة. أى أنه بعد نجاح عملية الانتهاك فى خرقها للحدود، سرعان ما تقوم سلبية التحريم، بما تتخذه من مظاهر النهى والقمع، بإحداث آثارها المزدوجة التى تتراوح بين تفجير أحاسيس القلق والرغبة الدافعة إلى إقامة الحدود، وبين إحياء دوافع الرغبة فى خرق هذه الحدود نفسها وتجاوزها، الأمر الذى يجمع، فى نظر

الكاتب، بين اللذة والقلق ويمزج بين الرغبة والخوف فى وفاق بالغ الإثارة والالتباس.^(١٦)

أضف إلى ذلك أن معارضة التحريم للعنف ولكل تجاوز يتهدد مبدأ الحدود، إنما هو، فى الواقع، معارضة للموت نفسه ولحركته التقويضية التى لا تكل، إلا أن ذلك لا يحول بين الموت وشغل الذات الرغبة ودفعها إلى حافة الهاوية، إلى حيث تتنازعها دفتان لا يمكن ردهما: دفعة الفناء فى الوجود الكلى المتصل من جهة، ودفعة إحياء التحريم بما يتلبس به من عوامل لإخماد الرغبة وإثارتها، من جهة أخرى. من ثم تبرز للعيان العلاقة الوثيقة التى تربط بين التحريم كحاجز أمام العنف وبين عملية انتهاكه التى يناط بها تفجير هذا العنف نفسه، كما تتضح العلاقة الجدلية التى تنشأ بين القانون وبين عملية خرقه، أى هذه الثنائية التى تعد بمثابة حجر الأساس الذى قامت عليه الإنسانية الحديثة بقاعديتها العمل والتحريم. ومرد ذلك، عند "بطاي"، أن النشاط الجنسى لم يكف، منذ ظهور "الإنسان العاقل" ^(١٧) (Homo Sapiens) على وجه هذه البسيطة عن البروز فى أغنى وأعنف مظاهره وهو الأمر الذى شكل عبر تاريخ البشرية العاملة- خطراً جسيماً على القوى الإنتاجية وعلى الدوافع الأساسية الملائمة لبناء الحضارة، ولعل من أهمها، من منظور الكاتب، عملية إرجاء المتعة. ومن ثم تولدت الحاجة إلى قيام مبادئ التحريم لكى تنشأ الإنسانية على أساس من احترام الحدود سواء

أمام الموت أو اتجاه النشاط الجنسي، وهى الحدود التى يعد تحريم الزنا بالمحارم وطقوس الموت من أهم مظاهرها الحية والمتبقية.

لاجرم إذن أن يشكل الموت، فى افتتاحه على استمرارية الوجود الكلى، الجانب الآخر من الحياة؛ فهو، وإن كان نفيًا وإلغاءً لها على مستوى الوجود الآتى المباشر، يُعد بمثابة تأكيد لها ودعم لقواها على المدى البعيد. ذلك أن الموت هو الذى ينظم الحياة، وهو الذى يضع لتجاوزاتها وزخم فيضها الضوابط والحدود. ولعل أبلغ دليل، يسوقه لنا الكاتب على ذلك، هو حاجة النشاط الجنسي المتجاوز للحد إلى تسخير وتبديد طاقة هائلة تحمل بين جنباتها بذور الهلكة والفناء كقوة كامنة فى دفعة الحياة نفسها. ومن هنا كان على مبدأ التحريم أن يشيد حواجزه فى قلب الرغبة نفسها، وذلك حماية للحياة من التهديد والضياع؛ إلا أن كل إلزام بالحدود يحمل فى داخله إغراءً كامناً بتجاوزها ودعوة غير صريحة بانتهائها، مثلما يقال فى المثل الشائع «كل ممنوع مرغوب».

وهكذا يمكن القول بأن غواية التجاوز لا تتعارض مع مبدأ التحريم، بل هى «تخطئه» و«تتممه»، وفقاً لعبارات الكاتب. أضف إلى ذلك أن هذه الغواية تسمح بعودة الذات الرغبة وتأكيدها بقوة بعد مرحلة من الكبت الطويل؛ وهى ذات غير بناءة، على عكس "الكوجيتو" الديكارتى أو الذات المبدعة والخالقة عند "سارتر". ذلك أنها لا تقيم معرفة موضوعية أو واعية بالوجود ولا تؤسس العلم،

ولا تؤكد النظام. بل على العكس من ذلك كله، إنها ليست إلا بؤرة أو نقطة ارتكاز لحالات من اللامعرفة، ولكن لحالات في تجاوز مستمر وفي حركة دائبة لا تعرف الثبات أو الاستقرار. ومن ثم، لا يضافى "بطاي" على أية تجربة وجدانية أو داخلية، سواء أكانت من غمط صوفى أو جنسى - إذ أن كل واحدة منهما تجربة تقوم على ضرب من العشق والفناء فى الآخر أو فى الوجود الكلى - صفات الصدق والأصالة والجدية إلا إذا كانت انغماساً أو فناءً فى تجربة شمولية، وذلك بقدر ما يمثل الكائن الفردى المتناهى فتقاً فى نسيج الوجود الكلى، وبقدر ما يتوق هذا الفتق إلى الرق والتلاشى فى الوحدة الأولية والأبدية لهذا الوجود. وإذا كانت عملية نقض المحرمات تعد من الحالات الوجدانية أو الانفعالية الصرفة، فإن التحريم لا يشكل، مع ذلك، نوعاً من العقلانية الخالصة أو الكاملة. فهو، بالرغم من انتماؤه لمعايير تقوم على الموضوعية والاتساق والنظام، لا يستطيع أن يفلت تماماً من مجال الحس والانفعالات، وذلك بقدر ما يعتمد، فى فرض وجوده - السابق بالضرورة على عقلنته - على أحاسيس الرهبة والفرع والقلق، أى الأحاسيس التى تشكل، فى قلب التجربة المعيشة، المضمون الفعلى أو العملى لظاهرة القداسة.^(١٨)

يبد أن انتهاك المحرمات أو التعدى على الحدود ليس، بالرغم من ذلك، مجرد تفريغ لشحنة زائدة من الانفعالات العنيفة، ولا مجرد تخلص

من توتر الدفعات الغريزية بطريقة عفوية أو تلقائية؛ إذ أنه، على النقيض من ذلك، يتطلب بعضاً من الثقافة والتنظيم، ويفترض ضرورياً من القواعد والمعقولة^(١٩). ذلك أن عملية التكرار التي يمر بها هذا الانتهاك تفرض عليه نوعاً من تنظيم الممكن أو الفاضل الذي يحمره العنف الملازم له. من ثم، نرى ونفهم كيف تنظم وتبارك شرعة الزواج رغبة النكاح، وكيف تضفي الحرب والمبارزة وقضايا الثأر أشكالاً مقننة وتبريرات معقنة على شهوة القتل والتكيل. كما نرى كيف أصبح انتهاك تحريم قتل النفس في مجال المقدسات "الطقس الديني الأمثل"، كما يقول الكاتب، من خلال طقس الأضحية وتقديم القرابين في الديانات القديمة. ذلك أن طقوس القرابين المروعة تستطيع عما تمثله من عنف دموي، أن تضع حدًا للطابع الآني والمنقطع لوعي الكائن الفردي، وأن تغمره، عبر أجواء من الصمت الرهيب، في محيط من الشمولية الكونية. ويعتقد "بطاي" أن الصدع أو الشرخ الذي يحدثه انتهاك المحرمات في حياة الكائن الفردي ليذيه في الآخر ويفنيه في حميمة الوجود الكلي يُعد الجسر المشترك الذي يربط بين فعل العشق وفعل التضحية والفداء؛ ذلك أنه، كما يقول: «إذا كانت التضحية تستبدل الحياة المنظمة للحيوان بالتقلصات العمياء لأعضائه»، فإن نشوة العشق «تحرر الأعضاء» وتجعل من «حركة الجسد» فعلاً يتجاوز الإرادة ويخلش الحياة.^(٢٠)

وتبرز عملية الانتهاك فى تلازمها مع مبدأ التحريم بصورة واضحة من خلال ظاهرة الزواج الذى ينبئ - كما يقول الكاتب - «بالانتهاك ويضفى عليه الشرعية». ذلك أن الزواج يبدأ عادة بما يشبه «الاغتصاب المشروع»، ويتم، فى الأغلب، تحت سمات «الخنجل والحياء». إلا أن انتظام العادة وغلبة الألفة سرعان ما ينتهيان بتنظيم الانتهاك نفسه، وتخليصه من كل شحناته الانفعالية. غير أن أكثر أنواع الانتهاك عنفاً، فى نظر "بطاى" كانت تتمثل - بلا جدال - فى احتفالات وشعائر المحون (orgie) التى كانت تمارسها بعض الطوائف الدينية القديمة، والتى كانت تصل فيها "المستيريا" الجماعية إلى الحد الذى تهدد فيه حياة الممارسين لها. ويرى "بطاى" فى هذه الطقوس، التى كان يلجأ إليها أتباع الغنوصية فى بدايات العهد المسيحى حالة من حالات غياب الوعى الجمعى الذى يشبه وضع "القداسة" فى الديانات البدائية التى تقوم على مبدأ المحايطة، والتى يتم فيها الالتحام بين الجماعة والطبيعة بطريقة تكاد تبلغ حد الانصهار التام. أى أن ما كان يتم هنا ليس، بأية حال من الأحوال، ضرباً من التهالك على المتع واللذات، وإنما كان نوعاً من الوجد أو الانسحاق "المستيرى" إن صح هذ التعبير، الذى قد يشبه الزار فى الممارسات الشعبية؛ وذلك بغية تجاوز العالم المضنى للعمل والنواهى والمحرمات، والرجوع لا إلى نوع من الطبيعة البهيمية

العمياء، كما يظن بعض الباحثين، وإنما إلى تنوع من الوحدة الأولية والسكينة الشاملة.^(٢١)

مهما يكن من أمر، إن المسيحية، خاصة بعد انتصار حركة الإصلاح والتصويب التي قادها القديس "أغسطين" (٣٥٤-٤٣٠م)، وبعد تطهيرها من بقايا المانوية والغنوصية، لم تقبل بمبدأ الانتهاك كحقيقة مسلم بها، واستعاضت بمفهوم "الألوهية" (Le Divin) عن مفهوم "القداسة" (Le Sacré) مفرغةً بذلك مفهوم "الاتصال" أو "الاستمرارية" (Continuité) من مضامينه الانفعالية العنيفة ودلالته الحلولية البحت، لتضمنه معانٍ متسامية كالخبرة والسماحة، وهو الأمر الذي أدى، في نظر الكاتب، إلى تجاوز مرحلة "الانتهاك" ومكانتها القديمة نحو رؤية أكثر دعة ومسألة. ومعنى ذلك، أن المسيحية لم تلغ تمامًا مفهوم "الاستمرارية"، وإنما نقلته من مستوى الاتحاد الانفعالي بالطبيعة عن طريق الهتك والعنف والموت في صوره المختلفة (تقديم القرابين البشرية أو الحيوانية، الشعائر والطقوس المغيبة للوعى...) إلى مستوى الإيمان المتسامي بالخالق وبعث الأفراد. ولقد ترتب على هذا التحول فقدان مبدأ الانتهاك لقدرته على تحقيق الاتحاد بفكرة الألوهية، وترديه إلى مستوى الرجس وتدني المقدسات، كما تمخض عنه ارتباط العشق والجسد ارتباطاً يرمز، في الأغلب، إلى الشرور والآثام وعالم المعصية والخطيئة.^(٢٢)

بيد أن طرد مبدأ الانتهاك من مجال الطبيعة والدفعات الحيوية للإنسان لا يلغى دوره تمامًا، ولا يضع حدًا حاسمًا لقوته التدميرية، وإنما يربطه بصورة أكثر وضوحًا وبريقًا بعالم اللغة والخيال، وذلك بقدر ما تضيف عليه روعة التصورات الأدبية والفنية جاذبية تتجاوز، إلى حد كبير، مكانته الفعلية في عالم الواقع. ولعل مؤلفات "ساد" تمثل في هذا الصدد - كما يذهب "سولرز"^(٢٣) - ردة أو صدعًا بالغ العنف في قلب المثالية الديكارتية والعقلانية المادية التي قامت على أسسها فلسفة التنوير. وليس هذا الصدد، في أغلب الظن، إلا نوعًا من الارتداد المأسوي المروع لسلبية أو عدمية الرغبة التي عملت على طمسها العقلانية الغريبة، مثالية كانت أم مادية، إبان عملية تأسيسها المواكب لقيام المجتمع الليبرالي الحديث^(٢٤). وليس من شك في أن المطموس أو المكبوت هاهنا ليس إلا الذات الراغبة نفسها في دفعاتها العمياء، وفي تعرفها على طبيعتها أو ماهيتها كذات سلبية وهدامة. بيد أن بروز هذه الذات عند "ساد" في صورة فيض من الطاقة المبددة أو المهذرة لا يحجب كون ثورتها العارمة نوعًا من الصحوة أو اليقظة التي تكشف عن مدى انغلاق نظم القمع والاستبداد على نفسها. ومن هنا يكتسب الشر، في صورته العامة كعرق وانتهاك للأعراف وعلاقات القوى المهيمنة، قيمته الإيجابية الهائلة، ألا وهي قدرته اللامتناهية على التحول من قوة انتهاك ودمار إلى قوة ثورية تفتق الوعي وتلهب الخيال وتحرر المستقبل.

من ثم، نفهم كيف تبلغ الرغبة السادية فى حدتها وعنفها إلى الدرجة التى تكتسح فيها كل مفهوم للحواجز والحدود، وكيف تجعل من الشخصية، التى تتجسد فيها، مثال التجاوز وانتهاك المحرمات؛ وذلك إلى الحد الذى لا يقبل فيه "البطل السادى" بأى لون من الألوان المساواة مع ضحيته، طالما أن ما يكيله لها من صنوف الويل والعذاب والهوان يحقق له كل ما يطمح إليه من تمجيد ذاته وتأكيد وحدته واستعلائته على كل عرف أو قانون. وليس من شك فى أن مثل هذه الشخصية، التى لا تقيم وزناً إلا لمتعتها وملذاتها، لا تتراجع أمام أبشع أنواع الجرائم تحقيقاً لنزواتها وإرضاءً لشهواتها؛ وهو الأمر الذى يجعل من الجريمة السادية أبلغ صورة من صور التجاوز وتبديد الطاقة، وأعتى مظهر من مظاهر الإرادة المتمردة والمتحردة من كل وازع أخلاقي وديني.

أضف إلى ذلك أن الجريمة، فى نظر الشخصية السادية، ليست نوعاً من السلوك الذى يراد به مجرد تحقيق اللذة والمتعة عن طريق العنف والتمرد الأهرج على أعراف المجتمع وقوانينه؛ إذ أن هذه الشخصية تجمع إلى ذلك كل ما يتفق عنه ذهنها وخيالها من ألوان التعذيب والتكسيل إلى الحد الذى تتراوح فيه بين العريضة والفسق والجون، ولا تتورع عن القتل وتدنيس المقدسات. ويضيف "بلانشو"^(٢٥) إلى ذلك قوله بأن الجريمة السادية لا يجب أن تكون وليدة العاطفة أو الاندفاع الأعمى، وإنما عليها أن تتم بمنأى عن كل انفعال وفى رباطة جأش وبرود يدلان على التوحد

التام بين إرادة الشر لدى الجانى وبين الأثر التدميرى أو التخريصى الذى تحدثه، وذلك بقدر ما تشكل هذه الجريمة ثمرة لإرادة الصلبة ولتصميم لا يكل ولا يلين أمام المستحيل. وربما يرجع ذلك كله إلى كون اللذة الجهنمية، التى يبحث عنها البطل السادى، لا تنطبق بصورة تامة على موضوع بعينه مهما تكن درجة جاذبيته وإغرائه، فهى، فى أغلب الظن، لذة مفارقة لموضوعها، متجاوزة له إلى حد التنكر لماهيتها ومواجهة الفناء. ومن ثم، لا يتجاوز الجرم السادى، فى النهاية، كونه حلم دمار شامل، مجرد حلم لا يكف عن الانبعاث من خبوه، وهو الأمر الذى يحبس فى حدود اللغة والخيال، طالما أن اللذة المطلقة والجريمة المطلقة لا وجود لهما على أرض الواقع.^(٢٦)

على هذا النحو، يردنا الواقع إلى إشكالية التصور ووظيفة الكلام، إذ قبل ظهور "ساد"، كما يذهب الكاتب، كانت الكلمة تشكل سمة الإنسان المتحضر، الذى يعرف كيف يكبت العنف الحقيقى أو يسقطه على الآخر، أى على "الهمجى" أو البدائى، وأضف الأجنبى أو الغريب فى البلاد الغريبة "البالغة التقدم". ويقول "بطاى" فى هذا المعنى "«إن اللغة من حيث تعريفها، هى تعبير الإنسان المتحضر، أمام العنف الصامت»»^(٢٧). إلا أنه منذ بزوز الظاهرة السادية على مستوى الكتابة، يصبح خطاب العنف مجرد تكرار أو اجترار لواقع يكفى بالانبثاق على مستوى الوعى. ومع ذلك، يبقى الموقف السادى مثيراً

للهشة والاستغراب، إذ أن إعطاء الكلمة للحلاد هو، فى واقع الأمر،
تحصيل حاصل - كما يقال-؛ وذلك بقدر ما يقوم الخطاب السادى على
منطق السيادة والهيمنة، وهو منطق - كما نعزم - عماده الاستبداد المطلق،
وقوامه رفض الحوار والمجادلة؛ وبقدر ما تدفع ظاهرة العنف صاحبها إلى
اجتياز المحذور الذى يريده، مع ضحيته سواءً يسواء، إلى حافة الهاوية.

وقد يفسر "بطاى" وظيفة الكلمة، حينما تمنح للضحية، بأنها
تحقق لها نوعاً من الاحتجاج الصاحب على مشروعية العقاب الذى ينزل
بها. ولعل منح حق الكلمة للضحية يمثل، فى نظرنا، شيئاً أعمق من
ذلك، وأقرب إلى تأكيد هذه السادية المعكوسة التى نقع عليها فيما
يعرف بمازوكية السادى نفسه، حينما نراه يحدد قمة لذته وذروة متعته
ونشوته فى اعترافات الضحية وسردها اللاهث المتقطع للأهوال التى
تعرضت لها؛ إذ نحن هنا، كما هو الحال فى عالم "نيتشه" الفلسفى، أمام
حب "سادى" للألم والعذاب يتيح للبطل "الخارق" أن يتجاوز الطابع
المأساوى لهذه الحياة، وذلك بوصف المأساة جزءاً أصيلاً من طبيعتها،
وليس مجرد استثناء أو انحراف فى مجراها. بل إن "بلانشو" يذهب أبعد
من ذلك، حينما يخبرنا بأن البطل السادى لا يتراجع، بالرغم من ميله
الطبيعى إلى إيقاع الأذى بالغير، أمام الذلة والمهانة، ولكن ليس تحت وقع
الضرورة الملزمة لوضع المهوورين والمستضعفين، وإنما من منطلق اللذة
الخالصة، وإعجابه المريض بمن هم أقوى وأحذق منه. ومن ثم، يصبح

خطاب الألم والعذاب فى المؤلف السادى أشبه بنشيد دام يلهج فيه البطل
بالثناء على الشر وعلى الإرادة الحديدية التى تحرّكه وتوجهه. (٢٨)

أضف إلى ذلك، أن خطاب العنف قد يستطيع، بما يتضمنه من
ميراث لهذا العنف وبما يقدمه من تحليلات لبواعثه وأهدافه، أن يتجاوز
على صعيد الواقع، الأمر الذى يجعل من هذا الخطاب نوعاً من التشديق
الذى يفصح خواءه وضرباً من التزويد الذى يكشف آلياته النفسية
والخيالية البحت. وربما يكون المقصود منه شىء آخر، كما تذهب
"سيمون دى بوفوار"، التى ترى فيه لونا من اللذة المضاعفة على مستوى
الوعى نفسه بحيث تنحصر المتعة الحسية والمتعة الذهنية فى سمط
واحد. (٢٩) ومن المحتمل كذلك أن يكون "ساد" قد أراد بحديث العنف
رفع درجة إثارته النفسية إلى مستوى الذروة، وتأجيج إحساسه أو وعيه
بالانحراف عن القاعدة الأخلاقية العامة إلى درجة التغنى بأجماد الشر
ومتعة الفذة. إلا أن الأمر المؤكد، هو اعتقاد "بطاى" الراسخ بأن الرغبة
فى انتهاك المحرمات شعور ينبعث من دخيلة الإنسان ولا يفرض عليه من
الخارج. (٣٠)

وإذا كانت هذه الرغبة اللامحدودة فى التجاوز وخرق المحاذير
تنبعث، على هذا النحو، من دخيلة الإنسان، فلأنها -من غير شك-
وثيقة الصلة بظاهرة القداسة، كما رأيناها عند "بطاى" أى فى ارتباطها
بدفعات التبتيد وفناء الذات بحثاً عن الاندماج، عبر لحظات من الهول

والفرع، بالوحدة الأولية للطبيعة والكون. ومن ثم بروز هذه الرغبة نفسها، بالنسبة للكاتب، من خلال ظاهرة انعشق بشقيه الصوفى والحسى. ولكن علينا لكى نفهم ذلك، كما ينصحنا "بطاى" ألا نضفى دلالة جنسية على ظاهرة الاتحاد الصوفى، كما يفعل عادة أصحاب التحليل النفسى، إذ أن العكس هو الأقرب إلى انصواب فى نظره. ذلك أن الاتحاد الجنسى يستطيع بفضل التسامى الروحى أن يكتسب معنى يتجاوز طابعه الآنى المباشر وواقعه المتدنئ. ولعل فكرة فناء الذات، أو تجاوزها كطبيعة ملازمة للكائن المحدود، هى التى تسمح له، بفضل الرباط الذى يصل الحياة بالموت فى عالم يقوم على المحايضة والاتصال، بتصور العلاقة الحميمة بين الصوفية والجنس؛ وحتى علاقة لم تعد تبدو واضحة، على كل حال، منذ القطيعة التى أحدثتها الديانات المتعالية بين القداسة "الخيرة" والقداسة "الشريرة". ويخيل إلى الكاتب أن هذه القطيعة قد أدت إلى انقسام الحياة الجنسية إلى شطرين متعارضين: شطر خير ومشروع يرتبط بالتناسل والإنجاب وشطر سئ ومكروه يرتبط بالمتعة الخالصة والغواية وعمل الشيطان، وهو الأمر الذى دفع، فى نظر الكاتب، الزاهد أو المتصوف إلى البحث عن خلاصه وسعادته الأبدية فى موات الجسد وفنائها، وفى العزوف التام عن كل مباحج الحياة وملذاتها.^(٣١)

غير أن موت الجسد، الذى يبحث عنه الزاهد أو المترهب، ليس، فى نظر "بطاى" إلا قناعاً يخفى فى ثناياه غواية الجنس والحياة؛ وذلك بقدر ما يمثل الموت نوعاً من تبديد الحياة الفائضة، سواء فى توجهها إلى الآخر أو إلى الذات.^(٣٢) ومفاد ذلك أن الصوفى يتأرجح بين نزعتين: نزعته الطبيعية والغريزية نحو الحياة والجنس؛ ونزعته المتسامية التى تلبى حاجته المقابلة إلى العلو والارتقاء. ولكن إذا كانت الأولى تمثل نداء الحياة وغوايتها بشكل سافر، فإن الأخرى ليست إلا تهالكاً عنى موت، هو فى جوهره ضرب من الحياة الفائضة والممتدة إلى المآل النهائية. من ثم، نفهم أن يلتقى كل من العاشق والقديس عند "جورج بطاى": العاشق بقدر ما تدفعه رغبة انتهاك الحدود والمحاذير إلى طرح قضية وجود الإنسان ومعنى خلوده؛ والقديس بقدر ما تدفعه رغبة تتجاوز ذاته الحميمة والآنية إلى تأسيس الحياة فى قلب الموت والفناء.

الموت إذن هو الصورة المجازية الكبرى التى يقرم عليها البناء النظرى عند "جورج بطاى"، فهو الذى يلعب فى كتاباته دور "الاستعارة" الأساسية التى تتيح لنا، من جهة فهم حركة الشمولية الجذرية التى تربط بين دفعة الحياة ودفعة الموت؛ والتى تتيح لنا من جهة أخرى، فهم الكثير من مفاهيمه كالهبة والفقد والتجاوز والتبادل العام والمحدود، وأهمها - من غير شك - مفهوم الإنفاق.

وليس من شك، فى أن مفهوم الإنفاق (dépense) يلعب دوراً أيديولوجياً بالغ الأهمية فى أعمال "بطاى" وذلك بتقديمه عن طريق صورة الفيض الملازمة له دعامة قوية للأنطولوجيا الأساسية التى تحمل خطاب الاستمرارية والاتصال عند الكاتب. فهو الذى يسمح، على مستوى الخيال النظرى، الذى ينسج لحمه هذه الكتابات، بسد فجوة الرغبة وملء فراغ تقلصاتها - المتقطعة بالضرورة - لتنتهى فى سكونية "الواحد". إلا أن الرغبة، كما يقول "فرانسوا فال"، لا تخضع لمنطق الواحد، وإنما تميل إلى بعثرة موضوعاتها وتفتيتها إلى ما لانهاية، وهو الأمر الذى يفسر لنا تكرار مشهد اللذة والعذاب فى أعمال "ساد" إلى درجة الملالة والنصب. يقول هذا الفيلسوف:

«الجنس ليس الموت - أى هذه الوحدة المتكثلة (هذه الفكرة) التى تنقلنا إلى الجانب الآخر، فيما وراء الجنس والحياة، هناك حيث لا يوجد شيء قابل للإنتاج (حيث لا يقبل شيء بإنتاجه) من أجل جسد أصبح هو نفسه شيئاً - وإنما التناثر من خلال أشياء دوماً مختلفة، حتى ولو كانت متكررة فى تركيبها»^(٣٣).

ولكن ألا يذكرنا هذا الموت - مرة أخرى - بأسطورة "ثاتوس" عند "فرويد" وبما تشكله من عقبة ابستمولوجية فى هيكل تصورات التحليلية؟ مهما يكن من أمر، لقد حاول محلل معروف^(٣٤) أن يحل لنا هذه المعضلة التى تقيم الموت فى قلب الحياة، وذلك بصدد فهم "فرويد"

للتناقض القائم بين اللذة والألم عبر ظاهرة المازوكية. وخلاصة ذلك أن "فرويد" يحدد نوعين متميزين من اللذة أو قطبين مختلفين لها: الأول يشير إلى لذة عضوية أو دفعية ذات مستوى كمى تقوم على الإثارة وتفرغ جزءاً من الطاقة الفائضة؛ والثاني يشكل لذة استمتاعية خالصة تميل إلى الثبات والاستقرار، وتمثل ضرباً من التلذذ بالألم. وبهذا الصدد، يربط "فرويد" أسطورة "ثاتوس" أى دفعة الموت، بحركة الدفعات العضوية نفسها وبطابعها المتكرر فى جنوحه نحو الاستقرار. ويدعو أن "فرويد" يحاول أن يربط، من خلال هذه الأسطورة، ميل الإنسان الطبيعى إلى تكرار أو إعادة الحالات والأوضاع، التى يمر بها لأول مرة، بقوة كونية متجاوزة للحقل النفسى والحقل الحيوى على السواء. ويدعو أن هذه القوة ميالة بطبيعتها إلى العودة بنظام الحياة العضوية من التركيب إلى البساطة، ومن الحركة إلى السكون.

ويؤيد هذا المحلل نفسه، من جانب آخر، أننا لو قبلنا بأولوية عامل الاعتداء-الذاتى (auto-agression)، المكون لظاهرة المازوكية الأولية، ذات الارتباط الوثيق بنشأة الجنس، على عامل الاعتداء - على - الآخر (hétéro-agression) لأمكننا أن نفهم الأولوية التى يحتلها عامل النزوع إلى الصفر - أى إلى "الموت" - على الرغبة فى إبقاء حالة التوتر فى قلب مبدأ اللذة.^(٣٥) بيد أن هذه الأفكار لا تقنعنا كثيراً لأنها - كما سبق القول - تولج الموت فى قلب الحياة نفسها. ولعل المحلل

"دانييل لاجاش"^(٣٦) أقرب إلى الصواب حينما يؤكد لنا بأنه ليس هناك انتقال ممكن من العضوى إلى اللاعضوى داخل الاتجاه أو الميل إلى تخفيف حدة التوتر، وإنما -على الأغلب- نوع من "الزوجة" النفسية أو الارتقاء النفسى. ويضيف "لابلانز"^(٣٧) أن "فرويد" يخلط، فى هذا الصدد، بين مرحلة الصفرة وبين مستوى الثبات العضوى الذى لا علاقة له بالصفرة، وذلك لأن حالة الثبات أو الاستقرار العضوى تعمل، بهدف الوصول إلى التوازن، على طرد الإثارة أو الطاقة بقدر ما تعمل على حثها. هذا بالإضافة إلى أن قانون الثبات لا يمكن عده من العمليات الأولية التى يعرفها اللاشعور؛ إذ أنه، فى الأغلب، مجرد آلية للتكيف من أجل المحافظة على الحياة؛ ومن ثم، يجدر زبطه بظهور مرحلة الأنا المتأخرة نسبياً.

أخيراً وليس آخراً، أليس هذا الموت، الذى يُعنى به "بطاى" ويجهد نفسه فى استكناه معناه واستجلاء حقيقته، هو حد الرغبة نفسها وغايتها التى ينتهى عندها سعيها اللاهث المتقطع نحو الإشباع؟ مهما يكن من أمر هذا الموت، وما يتبادر إلى ذهننا من صور الشاعرية المرتبطة به، إنه يظل، بالنسبة لكاتبنا، هذه المحاولة المقلقة والمحيرة، التى يخشاها ويرغبها على السواء، للاتصال بالآخر وما يحمله من أسرار المطلق واللامحدود. ولكن إذا كان هذا الموت، الذى يتخيله "بطاى" مدخلاً إلى الآخر، أو المدخل الوحيد إليه. سواء أكان هذا الآخر معشوقاً أو معبوداً؛ فإن ذلك لا يتم له إلا بواسطة تجربته الداخلية البالغة الذاتية،

التي تزكنا -للأسف- على حافتها الخارجية. ومن ثم، فنحن لا نرى
فى محاولته المتتعة تلك إلا سعيًا يائسًا ومأسويًا على السواء فى سبيل
إدراك المستحيل، هذا المستحيل الذى يأبى الإنسان إلا أن يرقى إليه
-واعجابه!- على أكتاف الحياة.

هوامش البحث

(^١) جورج بطاى (١٨٩٧-١٩٦٢)

تخرج هذا الكاتب من مدرسة الوثائق عام ١٩١٨ وعُين فى عام ١٩٢٢ مديراً للمكتبة
الوطنية بباريس. ولقد انضم لفترة وجيزة إلى حلقة السريالين، ثم شرع يهاجم رائلهم
"أندريه بريتون" ابتداءً من عام ١٩٢٩. ولقد تأثر "بطاى" بأفكار "نيتشه" و"هيجل"،
كما كان يفسره "ألكسندر كريف"، وعالم الأثرولوجيا "مارسيل موبس". ولم تتأكد
شهرة "بطاى" إلا بعد بلوغه سن الستين حينما نشرت له ثلاث دور نشر ذائعة الصيت
(جاليمار ومينوى وبوفيه) ثلاثة من أعماله السابقة دفعة واحدة. وهى دراسات:
"الأدب والشعر"، و"الجنس"، ورواية "زرقعة السماء".

انظر:

Dictionnaire des Littératures, Sous la direction de Jacques
Demougin. Librairie Larousse, T.I, 1985, pp. 165-166.

(^٢) علم اللغائير هو ما يسميه "بطاى" (L'Hétérologie) ويهدف الكاتب من تأسيس هذا
العلم إدراك ما يخرج عن نطاق الموضوعية وإلقاء الضوء على ما تسقطه المعرفة المنطقية
من حسابها، وينضوى، من ثم، تحت مظلة "اللامعرفة".

انظر:

Georges Batailles, œuvre Complètes. Paris, Gallimard, 1970,
pp.61,62.

(٣) المرجع نفسه، الجزء الأول، ص ٣٠٢-٣١٩.

(٤) المرجع نفسه، الجزء الأول، ص ٣٠٣.

Marcel Mauss, *Essai sur le Don*. (1923-1924), in *Sociologie et Anthropologie*. Paris, P.U.F., 1966.

ويضم هذا الكتاب أهم أعمال الأنثروبولوجي "مارسيل موس" مع مقدمة تحليلية لهذه الأعمال بقلم رائد الأنثروبولوجيا الفرنسية المعاصرة "كلود ليفي-ستروس".

(٥) هذه الكلمة من أصل هندي-أمريكي، وبوجه خاص "شيتوك". انظر المصدر السابق، ص ١٥١-١٥٢.

ويعرف د. أحمد أبو زيد هذا المفهوم قائلاً: «يرتكز هذا النظام في أساسه وفي أبسط مظاهره على أن يقرم الشخص من ذوى المكانة والمركز الاجتماعي بتوزيع نوع معين من الأغذية على أقاربه الذين لا يلبثون بعد انقضاء فترة من الزمن أن يردوا إليه هذه الأغذية بعد أن يضيفوا إليها أعداداً أخرى كبيرة قد تصل إلى أضعاف ما أخذوه منه في الأصل. وكان كثير من العلماء ينظرون إلى هذا النظام على أنه نوع من الإقراض الذى يعود على صاحبه بفوائد مرتفعة. وهذا فهم خاطئ بغير شك، لأن البرتلاتش فى جوهرها نظام اجتماعي وشعائري يهدف إلى اكتساب مزيد من الشرف والسمة الطيبة وذئوع الصيت عن طريق المنح والعطاء والمبالغة في الرد.»

انظر: دكتور أحمد أبو زيد: البناء الاجتماعي - مدخل للدراسة المجتمع. الجزء الثاني. الأنساق. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص ٢٢٧.

(٦) جورج بطاي: الأعمال الكاملة (المرجع المذكور في البداية). الجزء الثاني، ص ٣١٠.

(٨) Georges Bataille, *Théorie de la Religion*. Paris, Gallimard, 1973, pp. 17, 84, 95-97

ينهب "بطاي" إلى أن مفهوم القداسة أو الألوهية في الديانات البدائية كان يربط بين الإنسان والطبيعة برباط وثيق نظراً لقيام هذا المفهوم أو التصور على مبدأي المخاض والمشاركة. ولعلنا نذكر أن "لوسيان ليفي-برول" كان يجعل من مبدأ المخاض أو المشاركة سمة رئيسية من سمات العقلية البدائية أو السحرية. من ثم فإن فكرة العلو أو

"الترنسدانس" (Transcendence) ما كانت تظهر للوجود، كما يقول الكاتب، إلا بعد بروز المفاهيم الثنائية وانقسام مجال القداسة إلى جانب خير وجانب شرير، أو جانب أبيض وجانب أسود.

^(١٧) جورج بطاي، الأعمال الكاملة، الجزء الثاني، ص ٣٣٣.

^(١٨) Georges Bataille, L'Érotisme. Paris, Ed. de Minuit, 1957, p.18.

^(١٩) R. Barthes, J.-L. Baudry, Bataille. Paris, U.G.E. (10/18) p. 43.

^(٢٠) Georges Bataille. L'Érotisme, Op. Cit., p. 29.

^(٢١) Gilles Deleuze, Présentation de Sacher-Masoch. Paris, Ed. de Minuit, 1967, p. 92.

^(٢٢) J.-L. Baudry, "Bataille et la Science", in Bataille, Op. Cit., p. 139.

^(٢٣) لا يجد "فرانسوا فال" أى ترابط بين مفاهيم القداسة والتحرير والانتهاك، بالرغم من قبوله بوجود قاسم مشترك بين تجربة العشق والقداسة بمعناها القديم القائم على مبدأ الخاطئة، ولعله يناقض نفسه فى ذلك. انظر مقاله:

François Wahl, "Nu, ou les impasses d'une sortie radicale" in Bataille, Op. Cit., p. 202.

^(٢٤) Georges Bataille, L'Érotisme, p. 43.

^(٢٥) المرجع نفسه، ص ٥٦.

^(٢٦) المرجع نفسه، ص ٥٨-٧١.

^(٢٧) مرة أخرى يعتقد الفيلسوف المعاصر "فرانسوا فال" أن "بطاي" قاته ربط مبدأ التحريم بمنطوقه أو ملفوظه (énoncé)، أى بنصه من جهة، وبتلفظه (énonciation) من قبل الذات الراغبة (وبالضرورة المتخيلة عبر اللغة) من جهة أخرى. أى باختصار، فى علاقته بقضية اللغة، وبالدال بوجه خاص فى توليده للمملولات من غير المرور حتماً بتجربة واقعية أو فعلية. ولعل ذلك يرجع، فى نظرنا، بجانب غياب المفاهيم اللغوية للغة عند "بطاي"، إلى أنه كان معنياً بتصورات أشبه بانشقاق الذات الراغبة، ومن ثم انفتاح اللغة

على الجسد الحي، وقد يكون في ذلك نوع من رد الفعل ضد "الكتابة الآلية" التي أولع بها "أندريه بريتون" رائد الحركة السريالية، والتي كانت وكأنها تقيم التجربة الحية (لاحظ تضخيم دور الطبيعة والدفعات الحيوية عند "بطاي") في قلب اللغة وتوليدها منها بشكل آلي بحت.

انظر مرجع الهامش رقم ١٥، ص ٢٣٨.

Georges Bataille, L'Erotisme, p. 102. (٢٠)

(٢١) المرجع نفسه، ص ١٢٨، وانظر كذلك:

Georges Bataille, Théorie de la Religion, Op. Cit., pp. 17-84.

Georges Bataille, L'Erotisme, p. 132-137, et p. 18. (٢٢)

Philippe Sollers, "L'Acte Bataille", in Bataille. Op. Cit., p. 18. (٢٣)

(٢٤) هذا الصدى الذي تحدته "عدمية" الرغبة في قلب النسق العقلاني الغربي الحديث يذكر بعدمية الجنون في قلب التجربة الكلاسيكية للعقل عند "ميشيل فوكو".

انظر دراستنا د. محمد على الكردى، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢، ص ١٥٩-٢٤٤.

Maurice Blanchot, Lautréamont et Sade, Ed. de Minuit, Paris (٢٥)
1963, pp. 44-45.

Georges Bataille, L'Erotisme, p.192-194. (٢٦)

(٢٧) المرجع نفسه، ص ٢٠٦.

Maurice Blanchot, Op. Cit., p. 131. (٢٨)

Georges Bataille, L'Erotisme, p.213-215. (٢٩)

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٢١٦-٢١٧.

(٣١) المرجع نفسه، ص ٢٤٦.

(٣٢) المرجع نفسه، ص ٢٥٥، وص ٢٧٦-٢٨٦.

ois Wahl, in Bataille, Op. Cit., p. 225. (٣٣)

Jean Laplanche, Vie et Mort en Psychanalyse, Paris, ^(٣٤)
pp. 178-198.

^(٣٥) المرجع نفسه، ص ١٨٢.

^(٣٦) المرجع نفسه، ص ١٨٤.

^(٣٧) المرجع نفسه، ص ١٩٨.

٢ ■ ميشيل فوكو

حياته وأعماله

٢- ميشيل فوكو

حياته وأعماله

ميشيل فوكو إنسان متعدد الأقنعة والوجوه، كما كان يحلو للعالم الأنثروبولوجي الشهير "جورج دوميزيل" أن يقول. ومن ثم، فلست أدري إذا كانت حياته الشخصية - وهو الأمر الذي كان يرفضه دعاة البنيوية وغيرها من النظريات الفلسفية المعاصرة كـ "التفكيكية" (دريدا) و "الريزوماتية" (دولوز وجنارى)^(١) الذين لا يعنون إلا بالنص وتفرعات النص وهامش النص وجذور النص - تفيد في فهم أعماله وشرح أفكاره. وليس من شك في أن تاريخ الفكر الفلسفي يقوم أساساً على النصوص وفهمها وتفسيرها؛ إلا أن ذلك لا يمنع من الرجوع إلى حياة الكاتب والمبدع وإلى الأحداث الهامة التي أثرت فيها وفي حياة معاصريه حتى يمكن إلقاء مزيد من الضوء على هذه النصوص، وعلى

ملايسات نشأتها وتكوينها، وكذلك على الدور الذى لعبته فى عصرها، سواء أكان هذا الدور متسقاً مع إرادة الكاتب أم غير متسق.

ولد ميشيل فوكو بمدينة-"بواتيه" (Poitiers) عام ١٩٢٦، وتوفى بباريس إثر إصابته بمرض "الايدز" عام ١٩٨٤. وكانت ظروف ميلاده تشبه إلى حد بعيد، ظروف ميلاد "جوستاف فلوير"؛ إذ أن والد كل منهما كان طبيباً مشهوراً يريد لابنه أن ينشأ على شاكلته وأن يقتفى أثره. كما أن لميشيل فوكو أنحاً طبيياً أشبع رغبة والده فى تحقيق ذاته، وأبعد، من ثم، بطشه عنه؛ وهو الأمر الذى بذر بنور الكراهية والبغضاء فى نفس كل منهما نحو أبيه، ووثق أواصر المحبة، ربما عن طريق التعويض، بين كل واحد منهما وبين والدته.

نما ميشيل فوكو وترعرع فى أكثاف أسرة ذات سعة وجاه وفرت له كل ما يحتاجه، وهو الطفل الهزيل الميال إلى العزلة والوحدة، من الرعاية والتعليم الملائمين. إلا أنه لم يكن دوماً من نبغاء التلاميذ، خاصة بعد قدوم أبناء السراة من الباريسيين إلى المدينة هرباً من شرور الحرب وويلاتها، وإن شهد له بعض أساتذته بالتفوق فى مواد التاريخ واللغتين اليونانية واللاتينية. ولقد رسب أول مرة عام ١٩٤٥ فى مسابقة القبول بـ"مدرسة المعلمين العليا" بباريس ولم يُسمح له النجاح إلا فى المرة الثانية. ومهما يكن من أمر، فهو قد بدأ يتقدم فى دراسته بعد هذا النجاح، كما أخذ يتعمق فى قراءاته الفلسفية متأثراً بدروس

أستاذه "جان هيوليت" عن "هيجل" التي فتته وأثرت فيه تأثيراً دفعه إلى التخصص فى الفلسفة.^(٢) إلا أن كلفه بهذا الفيلسوف لن يستمر طويلاً؛ إذ سرعان ما سوف يُفتن بدراسة "ماركس" تحت تأثير أستاذه "التوسير"، ثم بعد ذلك بـ"نيتشة" الذى سوف يكرس له دراسة متميزة ضُمت إلى مجموعة الدراسات المهداة إلى ذكرى أستاذه الأول "جان هيوليت" المتوفى عام ١٩٦٨.^(٣)

لقد قضى ميشيل فوكو سنوات عصيبة بـ"مدرسة المعلمين العليا"، إذ أنه لم يكن شاباً سوياً أو لين العريكة حتى تسهل معاشرته أو مخالطته من قبل أقرانه الذين كانوا يشاركونه السكنى والدراسة بالمدرسة نفسها، خاصة وأنه كان يختلف، جلسةً، فى المساء إلى أوكار وحانات "المثليين"، وهى عادة مرذولة لم تكن بعد مقبولة فى ذلك الوقت؛ وما كان له أن يعترف بها مخافة الخزى والعار، مثله فى ذلك مثل الناقد الشهير "رولان بارت" الذى لم يُعرف ميله إلى الصبية إلا بآخرة. ويعتقد بعض المحللين لفكره أن هذا الشذوذ، الذى دخل فى أعراف الفرنسيين منذ ثورة عام ١٩٦٨ الثقافية كنوع من الأسلوب الخاص فى الحياة، كان بمثابة الدافع الأساسى له نحو تعميق الدراسات النفسية والاهتمام بأخلاقيات الذات، وهو ما دفعه إلى الانكباب على أعمال "فرويد" و"بطاى" و"بلانشو" و"كلوسوفسكى" و"جان جينيه" و"ساد".

إلا أن اهتمامات فوكو لم تكن لتقف عند هذه الجوانب النفسية، التي ربما سيطرت عليه فى فترة تكوينه الأولى، والتي كانت رسالته عن "الجنون فى العصر الكلاسيكى" ثمرتها المبكرة، إذ أنه كان يعنى بقراءة "ديكارت" و"كانط" منذ المدرسة الثانوية، وبعد ولعه المبكر بفيلسوف المثالية الأعظم "هيجل" أخذ يقرأ أعمال "ماركس"، تحت تأثير "الترسير" المعيد النابه بـ "مدرسة المعلمين العليا"، إلى درجة انخراطه فى الحزب الشيوعى عام ١٩٥٠، ثم تعلق بـ "هوسرل" و"هيدجر". ولقد كان ولعه بهذا الأخير عظيمًا منذ أن قدم "ألفونس دى فالهنس" أعماله لأول مرة إلى الجمهور الفرنسى عام ١٩٤٢، ثم تلاه "جان بوفريه" بطريقة أكثر تشويقًا وطرافة، وذلك إلى الحد الذى ذهب فيه فوكو إلى تعلم الألمانية حتى يمكنه الاطلاع على نصوص الفيلسوف فى لغتها الأصلية؛ غير أن تأثير "نيتشة" كان هو الغالب، فى النهاية، خاصة بعد بدء اهتمام الكاتب منذ عام ١٩٧٠ بقضايا السلطة وعلاقات القوة وعمليات بناء الذات.^(٤)

وليس معنى ذلك أن فوكو قد انتظر عام ١٩٧٠ حتى يطلع على مؤلفات "نيتشة"، وإنما كان هذا العام بمثابة الاختمار أو الحسم الفكرى للكاتب. أما فى بداية حياته العلمية والتعليمية فنراه معنيًا بالدراسات النفسية والفسانية تأثرًا، من غير شك، بمشاكله ونزوعاته الخاصة التى يتوق إلى فهمها واجتلائها، واحتذاءً بمعلمه ومرشده

"التوسير" الذى لم يكن يكتفى بالدرس النفسى النظرى وإنما كان يقود بعض تلامذته، ومنهم فوكو، إلى مستشفى "سانت آن" للأمراض النفسية والعقلية حتى يطلعوا على بعض الحالات الإكلينيكية. ولعلنا نعلم أن "التوسير" نفسه كان يعاني من بعض الاضطرابات النفسية التى سوف تنتهى به إلى قتل زوجته وإحالاته نهائياً إلى المصحة. كما أن فوكو كان يتابع، فى الوقت نفسه، محاضرات عالم النفس القدير "دانيال لاجاش" فى السربون، وحصل تحت إشرافه، بعد اجتيازه درجتى اليسانس فى الفلسفة وعلم النفس، على دبلومين فى علم النفس وعلم النفس الباثولوجى عام ١٩٥٢.

والجدير بالذكر أن اهتمامات فوكو بعلم النفس كان يغلب عليها، ليس الطابع الإكلينيكى، كما يبدو من ترده على المستشفى المشار إليه، وإنما الاتجاه الوجودى الذى لا يعتد به علماء النفس المتخصصون ويعتبرونه نوعاً من الثثرة الفلسفية؛ وذلك تأثراً بالكتاب الجميل الذى ألفه العالم السويسرى "لودفيج بنسفنجر" (L. Binswanger) تحت عنوان "الحلم والوجود"، والذى قام فوكو بترجمته مع "جاكلين فيردو" قرينته المتخصصة فى علم النفس والتى كانت تنقصها الخبرة الكافية بمصطلحات الفلسفة الوجودية. أضف إلى ذلك أن فوكو ألحق بالترجمة الفرنسية التى صدرت عام ١٩٥٤ مقدمة إضافية أثارت إعجاب عديد من أساتذة الفلسفة. وليس من شك فى أن

الربط بين المفاهيم الفينومينولوجية ومناهج علم النفس والتحليل النفسى يرجع إلى بداية تعرف فوكو على أعمال "باشلار" وبوجه خاص كتبه عن الخيال، وكتابات "ميرلو بونتي" و"سارتر" و"لاكان" و"ياسيرز" و"هيدجر" و"ميلاني كلين"، وكذلك إلى قيامه، قبل أن يُعين معيدًا بكلية آداب جامعة "ليل" (Lille) عام ١٩٥٢ بشمال فرنسا، بإلقاء سلسلة من المحاضرات عن علم النفس بـ "مدرسة المعلمين العليا" بدأها عام ١٩٥١ وظل يلقيها متدبًا حتى عام ١٩٥٥. ولقد تمخضت هذه المحاضرات عن أول دراسة لميشيل فوكو عنوانها "المرض العقلى والشخصية" (١٩٥٤)، وهى الدراسة التى عدّها فيما بعد تحت عنوان "المرض العقلى وعلم النفس" (١٩٦٢) ورفض أن يعيد نشرها بعد ذلك.^(٥)

ويقضى فوكو بجامعة "ليل" ثلاث سنوات يُدرس فيها تاريخ علم النفس وأهم النظريات السائدة مثل "الجشّات" والتحليل النفسى الفرويدى والوجودى مازجًا ذلك كله بفحوص "الروشاخ" التى كانت تؤخذ على أنها نوع من التسلية، وبالتصورات المادية لبعض الفيزيولوجيين الروس الذين كان يرى فيهم امتدادًا للعالم الشهير "بافلوف". غير أن فوكو سوف يتنكر لذلك كله فيما بعد حينما يلفظ الظاهرية والماركسية على حد سواء.

ثم نراه بعد ذلك، عام ١٩٥٥، فى مدينة "أويسالا" بالسويد حيث رشحه العالم الأنثروبولوجى الكبير "دوميزيل"، المتخصص فى دراسة الأساطير الهندو-أوربية، ليكون محاضراً بـ "معهد الدراسات الرومانية" بهذه المدينة ويشرف على إدارة الملحقية الثقافية الفرنسية بالمدينة نفسها من الناحية التنظيمية والثقافية. وقد استطاع خلال مدة إقامته بالسويد (١٩٥٥-١٩٥٨) أن ينتهى من تحرير رسالته الرئيسية للحصول على درجة الدكتوراة ("تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى")، ولقد حاول مناقشتها بنفس الجامعة، إلا أنها لم تجد قبولاً نظراً لفخامة أسلوبها وبعدها عن المفاهيم الوضعية والتجريبية التى يقوم عليها العلم فى السويد. ثم نراه فى مدينة "فارسوفيا" التى يغادرها مطروحاً عام ١٩٥٩، وأخيراً فى مدينة "هامبورج" حيث ينتهى من إعداد رسالته التكميلية، وهى عبارة عن ترجمة ومقدمة مطولة لمبحث "الأنثروبولوجيا" عند كانط. وينتهى ترحاله عبر البلاد الأوربية بعودته إلى فرنسا خلال صيف ١٩٦٠.^(٦)

لم يكد فوكو يعود إلى وطنه حتى سارع إلى مقابلة أستاذه "جان هيبوليت" ليعرض عليه الإشراف على رسالته الرئيسية، إلا أن "هيبوليت" قبل الإشراف على الرسالة التكميلية عن "كانط" نظراً لإلمامه باللغة الألمانية وتاريخ الفلسفة، أما بالنسبة للرسالة الرئيسية عن موضوع "الجنون" فقد أوصاه باللجوء إلى "جورج كانجيلم" خلف العالم الشهير

"باشلار" لتدريس تاريخ وفلسفة العلوم بجامعة السربون. وكان "كانجيلم" باحثاً مرموقاً فى مجال فلسفة الطب وعلوم الحياة، كما أنه كان يشكل مع "كويريه" و"كافايس" فريق فلسفة المفاهيم وآليات الكشف العلمية ودور الخطأ فى البحث عن "الحقائق" مقابل رواد الظاهرية ودعاة الذاتية والمعنى على شاكلة "ميلر يونتى" و"سارتر".

ولقد رأس لجنة المناقشة "هنرى جويه" بجانب "كانجيلم" و"لاجاش" للرسالة الرئيسية، و"هيوليت" و"موريس دى جاندياك" للرسالة التكميلية. وبالرغم من تأنيق فوكو فى عرض نتائج رسالته عن ظاهرة الجنون عبر التاريخ الكلاسيكى وبدايات العصر الوضعى فى أبعادها الاجتماعية والإدارية والطبية والأخلاقية والقانونية، إلا أنه تعرض لعدد غفير من الانتقادات الخاصة من قبل رئيس اللجنة الذى أخذ عليه كثيراً من الشطط فى تفسير موقف "ديكارت" من موضوع "الشك" و"الجنون" فى قضية إقصاء اللاعقل والحكم على "الآخر" أو المغاير بالصمت^(٧)، وفى تفسيره لظاهرة احتلال "الجنون" مكانة "الموت" فى الوعى الشعبى فى أخريات القرن الخامس عشر؛ ولم يتورع كذلك "لاجاش"، صاحب بحث الدكتوراة الفريد عن "الغيرة فى الحب" (١٩٤٨) وكرسى علم النفس الباثولوجى من انتقاده بسبب اختلاف الرؤى والمناهج وميل فوكو إلى بهرج الأسلوب على حساب دقة التحليل.

و لم تلق رسالة فوكو، بالرغم من صدورها فى مجموعة الناشر (Plon) عن العلوم الإنسانية، التى نشر بها من قبل "كلود ليفى-ستروس" بعض أعماله ("المداريات الحزينة"، و"الأثروبولوجيا البتيوية") كبير صدى. بل إن مجلة "الأزمة الحديثة" التى يشرف عليها "سارتر" ومجلة "روح" (Esprit) التى تمثل التيار الكاثوليكي، وقفتا منه موقف العداء. كما أن فوكو أبى أن ينشر رسالته التكميلية، أو بالأحرى المقدمة التى مهّد بها للترجمة عن النص الألماني لـ"كانط"، وإن قبل فى النهاية نشر الترجمة منفردة بمجموعة "فران" (Vrin) المتخصصة فى الفلسفة. ومهما يكن من أمر، فإن كتاب فوكو عن "الجنون" سيحد حظوة كبيرة فى إنجلترا وخاصة فى أوساط المعارضين للطب النفسى الرضى ذى الطابع القمعى وعلى رأسهم "رونالد لينج" (R. Laing) و"ديفيد كوبر" اللذين سينضم إليهما فيما بعد الإيطالى "بازاجليا" وفيلسوف التحرر الشهير "هربرت ماركيز". إلا أن الأبعاد السياسية والاجتماعية الثورية الهائلة للكتاب ستبرز بعد تمرد الطلاب عام ١٩٦٨، وهو ما سيدفع علماء النفس المحافظين فى فرنسا إلى إدانة الكتاب فى مؤتمر عام أقيم بمدينة "تولوز" بين السادس والسابع من ديسمبر عام ١٩٦٩ عن "يوميات تطور الطب النفسى"^(٨).

يُعين فوكو بعد ذلك، عام ١٩٦٢، أستاذاً لعلم النفس الباثولوجى بجامعة "كليرمون-فران" حيث سيظل حتى عام ١٩٦٦.

ولقد أظهر فوكو، فى هذه الفترة، عداؤه الشديد للشيوعية متأثراً -ربما- بطرده السابق، والمريب بالنسبة لنا، من مدينة "فارسوفيا"، وذلك حينما عارض بعنف منقطع النظر تعيين "روجيه جارودى" عضو "المكتب الشيوعى" آنذاك، بنفس الجامعة بدلاً من صديقه "جيل دولوز" الذى كان يرغب فى تعيينه مكانه. كما أبدى بمالئته، فى الوقت نفسه، للنظام الديجولى إلى درجة مشاركته فى لجان إعداد مشروع إصلاح التعليم المعروف باسم "مشروع فوشيه-إيجران" (١٩٦٣-١٩٦٧) وترشيحه من قبل بعض المسئولين لوظيفة إدارية هامة بوزارة التعليم، إلا أن آفته المعروفة، والتى لم يعد يأنف من إفشائها، وقفت عقبة فى سبيل ذلك. بيد أن هذا لم يمنعه من تعيين صديق مشبوه له معيداً بقسم الفلسفة، الأمر الذى أثار السخط العام فى أرجاء الجامعة، ودفعه هو نفسه إلى البحث عن وظيفة أخرى خارج البلاد.

غير أن هذه الأحداث لا يجب أن تحجب عنا النشاط الثقافى الضخم الذى بذله فوكو خلال عمله أستاذاً لعلم النفس بمدينة "كليرمون"؛ إذ أنه نشر عام ١٩٦٣ دراسته عن "نشأة العيادة" التى تعد امتداداً لاهتماماته الطبية والنفسية، وعدداً ضخماً من المقالات والدراسات عن أدباء الطليعة والكتاب الذين رأى فيهم بذور الثورة والتجديد من أمثال "بطاي" و"بلانشو" و"كلوسوفسكى" وجماعة مجلة "Tel Quel" الملتفة حول فيليب سولرز"، كما نشر كتاباً فريداً عن

أديب منسى وغير معروف إلا من الأديب الأنثروبولوجى "ميشيل ليريس" ورائد الرواية الجديدة "آلان روب جريه"، ألا وهو "ريمون روسيل" (١٨٧٧-١٩٣٣). ولعل القاسم المشترك بين كل هذه الدراسات والكتابات هو "موت الذات" عبر خطاب المتكلم وبروز "نزعة الموت" عبر طقوس خرق المحرمات (بطاى)، و"قبلية الموت" كأساس لقيام المعرفة العلمية الصحيحة (دور "بيشا" فى "نشأة العيادة")، وكون الموت غاية الإنجاز الأدبى ("بلانشو")، وأخيراً هيمنة آليات الكتابة وكيثونة اللغة على الذات الفردية والإبداعية ("روسيل")^(٩).

وليس من شك فى أن إدراك وظيفة هذه الحتميات فى تحقيق الظاهرة الإنسانية وإنتاج الأنساق الدلالية والمعرفية المواكبة لها عبر التاريخ، عبر تاريخ لا أتساق له ولا استمرارية، هو الذى سيقود فوكو إلى دراسة وضع الإنسان من العلوم الإنسانية، وهو موضوع كتابه "الكلمات والأشياء" (١٩٦٦)، الذى جعل منه، بسبب المبيعات الخرافية التى حققها (ثمان عشرة وخمسمائة ألف نسخة فى العام نفسه، ومائة وعشرة آلاف نسخة حتى عام ١٩٨٩) نجماً عالمياً أو يكاد. وليس من شك فى أن سبب النجاح الباهر الذى حققه هذا الكتاب، هو توافقه مع انتشار الفكر البنىوى خلال مرحلة الستينيات بفضل كتابات "كلود ليفى-ستروس" الذى يُعد من أوائل المفكرين الذين هاجموا "سارتر" والمفاهيم التاريخية والجدلية باسم العقل التحليلى. ولعل أهم

ما رُوجَ له "كلود ليفي-ستروس" هو دور اللسانيات الحديثة ("ياكسون" ومدرسة براغ) في بناء وصياغة العلوم الاجتماعية^(١٠)، وهو ما فتح الباب أمام احتياح اللسانيات لمعظم مجالات العلوم الإنسانية كنموذج رائد ومنهج تصنيفي بعيد كل البعد عن التصورات الأيديولوجية والمقاربات الفينومينولوجية الذاتية. ومع ذلك، فإن فوكو سوف يرفض بطريقة قاطعة في كتابه "أركيولوجيا المعرفة" (١٩٦٩) انتماءه "المزعوم" إلى البنيوية، كما سوف ينكر حتى استلهامه للألسنية متذرعاً بكونه معنياً بضروب بالغة التميز والخصوصية من الممارسات الخطائية الاستراتيجية، وهي التي أسماها "التكرينات الخطائية".^(١١)

حينما يطمح فوكو في الإفلات من مجتمع "كليرمون" المخلق والبعيض إلى قلبه لتعارضه مع نزوعاته التحررية التي لم يألّفها الناس بعد، أو التي لم يعتادوا على الأقل نشرها أو إذاعتها فيما بينهم بصورة فاضحة، تتيح له علاقاته الخاصة واتصالاته المتميزة مع بعض المسؤولين الحصول على وظيفة بقسم الفلسفة بمدينة تونس عام ١٩٦٦. وسوف يمكث فوكو بالجامعة التونسية عامين حافلين بالنشاط التعليمي والثقافي؛ فالطلبة التونسيون يجيدون اللغة الفرنسية، على عكس السويديين أو البولنديين، ويتقبلون بسهولة ويسر ما يذيعه بينهم من أفكار جديدة، وما يعرضه عليهم من أحدث النظريات الفلسفية والنفسية والفنية. على هذا النحو، استطاع فوكو أن يقدم إلى التونسيين تصورات "ديكارت"

"نيتشة" و"هوسرل" و"تاريخ الفن من عصر النهضة حتى مانيه" الذى كان يُعده ممهداً لفن التصوير الحديث. إلا أن إقامته فى تونس سوف تتعرض سريعاً للبلبله والاضطراب، مرة حينما تحل نكسة ١٩٦٧ بمصر والعالم العربى، ومرة أخرى حينما تندلع الثورة الطلابية الفرنسية عام ١٩٦٨ فتأخذ الطليعة الثورية للطلاب التونسيين فى الاحتكاك بالسلطة والتهجم على نظام حكم بورقيبة الذى لا يؤازر الفلسطينيين فى نكبتهم الجديدة. وعلى الرغم من أن فوكو لم يكن متعاطفاً أساساً مع القضية العربية ولا مدرّكاً لأبعاد الصراع العربى-الإسرائيلى، وعلى الرغم أيضاً من معارضته للتيارات اليسارية المتطرفة، نراه يتعاطف بآخرة مع حركة الطلاب الثائرين الذين يتعرضون للاعتقال والضرب والتعذيب من قبل السلطات التونسية، كما أنه سوف يخرج بدرس عميق الغور من حركة الثورة الطلابية التونسية -الأمر الذى سوف تؤكدّه تجربته التالية فى فرنسا التى يصل إليها فى خريف ١٩٦٨- وهو أهمية الأيديولوجيا السياسية ودورها الأساسى فى تحريك الجموع الثائرة مقارنة بالتحليل النظرى للاغتراب والصراع الطبقي.^(١٢)

وحينما عاد فوكو إلى فرنسا، كان يحده أمل عريض فى أن يحصل على وظيفة بجامعة السربون؛ بيد أن خصومه العديدين بهذه الجامعة كانوا يشكلون عقبة كأداء أمام تعيينه بها، كما أن الحكومة الفرنسية التى شرعت فى إصلاح نظام التعليم الجامعى على إثر ثورة مايو

١٩٦٨ طلبت منه أن ينضم، فى إطار تطبيق قانون الإرشاد الذى أعده وزير التعليم "إدجار فور"، إلى لجنة إعداد جامعة "فنان" الجديدة. ولما كان فوكو مكلفاً من قبل اللجنة باختيار-أساتذة الفلسفة بوجه خاص، نظراً لنية الوزارة تعيينه رئيساً لقسم الفلسفة المقبل بهذه الجامعة، ولما كانت هذه الجامعة قد قامت أساساً لاحتواء العناصر اليسارية المتطرفة، فإننا نراه يحرص فى اختياراته على مراعاة ضرب من التوازن بين الأساتذة الماركسيين وغير الماركسيين. من ثم تتراوح اختياراته بين بعض تلاميذ "التوسير" من أمثال "آلان باديو" و"إتين باليار" و"جاك رانسير" و"فرانسوا رينيو"، وبعض ممثلى الاتجاهات الأخرى على شاكلة "جيل دولوز" و"ميشيل سير" و"فرانسوا شاتليه". إلا أن أعمال الشغب، التى كان يقوم بها الطلاب اليساريون المتطرفون لم تنته بعد بدء الدراسة، كما أن كثيراً من المحاضرات اتخذت طابعاً أيديولوجياً صارخاً، الأمر الذى دفع وزارة التعليم فى يناير ١٩٧٠ إلى عدم الاعتراف بالشهادات الجامعية التى حصل عليها خريجو عام ١٩٦٨-١٩٦٩. لا جرم أن تودى -من ثم- هذه الخطوة الجريئة من قبل النظام الحاكم إلى إثارة السخط العام بين الطلاب والأساتذة اليساريين؛ والجديد فى الأمر أنها دفعت فوكو نفسه إلى الانخراط فى صفوف الكتاب الثوريين المناهضين لسياسات القمع التى تلجأ إليها الحكومة الديجولية. ولعل أهم الدروس التى سيستخلصها فوكو من هذه التجربة الثورية الجديدة، هو تخليه عن

"البنوية" وما تنادى به من استبعاد الشعور وتغييب الوعي الثورى لصالح النسق والتحويلات "الميكانيكية" الحتمية المزعومة.

وإنه لمن حسن طالع فوكو أن يفلح أصدقاؤه، وعلى رأسهم "جورج دوميزيل" الذى لا يكف عن استخدام نفوذه فى سبيل ترقيته والإعلاء من شأنه، و"جان هيبوليت" أستاذه الذى رشحه خلفاً له فى "الكوليج دى فرانس" قبيل وفاته عام ١٩٦٨، و"فرنان بروديل" أستاذ التاريخ المرموق بـ"المدرسة التطبيقية للدراسات العليا" (E.P.H.E.)، وغيرهم فى تجميع الأصوات اللازمة لانتخابه أستاذاً للفلسفة بأكبر مؤسسة تعليمية شرفية فى فرنسا، ألا وهى "الكوليج دى فرانس" وذلك فى الثانى من ديسمبر ١٩٧٠.

وكان على فوكو بعد إلقاء خطابه الافتتاحى المرموق، الذى نُشر تحت عنوان "نظام الخطاب" (١٩٧٠) تقديم الخطوط العريضة للبرنامج التعليمى الذى يود إنجازه خلال السنوات التالية. من ثم، نراه يشتمل على شقين: شق يُعد تكملة لدراساته السابقة مثل "تاريخ أنساق الفكر" و"وظيفة السببية فى المعرفة"، وشق آخر لا يتضح إلا بعد عرضه لخطابه الافتتاحى التاريخى الذى يُبين فيه أن الخطاب المعرفى يشتمل على آليات ضبط وإقصاء تحتاج فى فهمها وتفسيرها إلى منهج نقدى يُفصح أو يكشف عن طرائق عملها، وهى تتراوح بين ضرورات اللياقة والتحریم وضوابط الحقيقة وتقنيات التعقيب والحد من اللامستولية

يرد النص إلى مؤلفه المتمركز حول ذاته، هذا من جهة؛ وإلى منهج "جينياولوجي"، من جهة أخرى، يقودنا إلى بدايات أو مصادر نشأة هذه الآليات، وهو ما يؤدي بدوره إلى تحديد دور علاقات القوة أو السلطة بأشكالها المختلفة داخل الخطاب. ومن ثم، حاول فوكو توسيع مجالات بحثه وحقل تنقيبه عن مختلف أنواع الخطاب، إذ بعد أن كان يُعنى بالخطاب العلمي أو المعرفي فقط (الطبي، النفسي، الاجتماعي...) أصبح يُعنى أيضًا بما يمكن تسميته بالخطاب التنظيمي على شاكلة الخطاب القانوني في علاقته بنظام الحبس، والخطاب الأخلاقي في علاقته بتنظيم الجنس وعالم الرغبة.

ومن ثم، نفهم لماذا أخذ فوكو، بعد أحداث ثورة مايو ١٩٦٨، وما رآه من تداعيل وثيق بين العملية التعليمية ودور السلطة السياسية في تنظيمها وتوجيهها، يُعنى بقضية السجون ويُشغل بمعرفة حياة السجناء والاطلاع على ما يتعرضون له من ضروب العنف وسوء المعاملة، وهو الأمر الذي دفعه إلى إنشاء "جماعة البحث عن السجون" (GIP) في الثامن من فبراير عام ١٩٧٠.^(١٣)

إن الاهتمام بوضع السجناء قد بدأ يشغل الرأي العام في فرنسا إثر الاعتقالات الواسعة النطاق التي تلت أحداث ثورة مايو ١٩٦٨، والتي انصبت، في معظمها، على الجماعات اليسارية المتطرفة. ولعل الجديد في الأمر هو أن وزارة الداخلية الفرنسية، انتقامًا منها لحوادث

العنف والتخريب التي صاحبت الثورة، لم تعزل المعتقلين السياسيين عن باقي السجناء المدانين في جرائم القتل أو السرقة. كما كانت تمارس ضدهم كل صنوف التعذيب والعزل، وهو ما دفع فوكو وصاحباه "بيير فيدال-ناكيه"، المؤرخ المتخصص في التاريخ اليوناني والذي سبق له أن أدان علناً عمليات التعذيب التي كان يمارسها الجيش الفرنسي ضد المناضلين الجزائريين إبان حرب التحرير، و"جان-مارى دومناك" رئيس تحرير مجلة (Esprit) الكاثوليكية النزعة، إلى توجيه نداء عام لأصحاب الضمائر الحية من الأطباء والمحامين وعلماء النفس والصحفيين والكتاب الملتزمين للقيام بعملية استقصاء وجمع للبيانات والمعلومات عن وضع المعتقلين السياسيين في البداية، ثم كل السجناء بعد تبين الأوضاع المتردية واللاإنسانية التي يعيشون فيها، من بين إهمال وسوء تغذية وانعدام للرعاية الصحية وانصراف عن كل تأهيل حقيقى وجاد لهم حتى يمكنهم مراجعة الحياة المدنية بعد خروجهم من السجن. ثم تطورت الدعوة من إصلاح أحوال السجناء من الخارج إلى الرغبة فى إعطاء الكلمة لأصحاب المعاناة أنفسهم حتى يعلنوا صراحة ما تحاول إخفاءه إدارة السجون والمسؤولون^(١٤). ولقد أدت هذه المحاولات إلى كثير من أعمال العنف والشغب داخل السجون نفسها، الأمر الذى أدى إلى تدخل قوات البوليس لقمع حركات التمرد وإدانة حركة المثقفين الثوريين الذين كان

قد انضم إليهم بكل وزنه القومي والعالمي "جان-بول سارتر" بالرغم من خصوصته القديمة مع فوكو.

على كل حال، إن نضال هذه الجماعة (GIP) التي كوَّنها فوكو وزميلاه السابقان، أخذ ينحسر ويفقد معناه تدريجياً بعد أن رأت النور "لجنة كفاح السجناء" (CAP) أنفسهم انتى تزعمها أحد السجناء السابقين. إلا أن فوكو المفكر لم يضع نضاله هدراً؛ فلقد أفاد خبرة ثورية جديدة، وهي ضرورة الانطلاق هذه المرة من القضايا والمشاكل الحية الملموسة واتخاذها سبيلاً إلى بناء المفاهيم النظرية على عكس ما كان يفعل فى سابق الأمر. ومن هنا تبرز أهمية كتابه عن "نشأة السجن" الصادر عام ١٩٧٥ والذى يلى نشره لملذكرات "بيير ريفيير" قاتل والدته وإخوته عام ١٩٧٣؛ وهو أول سفاح يخفف حكم الإعدام عليه فى فرنسا خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر إلى الأشغال الشاقة المؤبدة بسبب احتلال حالته العقلية. وترجع أهمية هذه المذكرات إلى كونها تعبيراً عن رغبة فوكو فى إعطاء الكلمة إلى الجناة، كما كان الأمر بالنسبة للمعتوهين وبعض الشواذ الذين يُحكم عليهم عادةً - من الخارج من قبل رجال القانون أو الأطباء أو المسؤولين مهما تكن السلطات المخولة لهم.

ونرى فوكو ينخرط بعد ذلك مع "جان جينيه" فى حركة نضال عاتية ضد العنصرية على إثر مقتل عامل جزائرى على أيدي

الشرطة نفسها فى قسم من أقسام انبوليس عام ١٩٧٢، وكذلك ضد الاستبداد السياسى وانتهاك حقوق الإنسان فى أسبانيا حينما حُكم على أحد عشر شخصاً من النساء والرجال بالإعدام بعد محاكمات صورية لأسباب سياسية محضه. ونلاحظ أن فوكو كان يشترك فى هذه الحركات النضالية جنباً إلى جنب مع أغلبية من المناضلين اليساريين المتطرفين، وبوجه خاص أتباع "ماو"؛ إلا أنه كان، مع ذلك، يُكن العداء الشديد للشيوعية والماركسية. ويبدو أنه -بجانب ردود فعله الشخصية ضد الجماعات اليسارية التى لم تجمعها وإياها إلا عمليات النضال المشترك- كان متأثراً فى ذلك بموجة المحسار المد الحماسى الذى تأجج مع "التوسير" ومدرسته فى مرحلة الستينيات بدءاً من السبعينيات، خاصة بعد هروب كثير من الكتاب الروس الذين أخذوا يكشفون النقاب عن الأحوال التى كانت تقع حينذاك فى الاتحاد السوفيتى والبلاد التابعة له، ولعل أكثر الكتابات إيلاًماً وفضحاً فى الوقت نفسه، لمفاسد ومظالم النظام السوفيتى العتيق، هو ما نشره "سوليتسين" عام ١٩٧٤ تحت عنوان "أرخييل الجولاج" أى معسكرات العمل الجماعى.

ولم يكد فوكو ينشر كتابه الذائع الصيت "المراقبة والعقاب- نشأة السجن" فى ربيع ١٩٧٥، حتى بدأ يعلن عن رغبته فى كتابة دراسة مطولة عن "تاريخ الجنس". وليس من شك فى أن هذه الرغبة لم تنشأ من فراغ؛ فلقد كان فوكو من عشاق "جورج بطاى" مؤرخ

ومنظر "الإيروسية" المبدع الذى عرف بمذهبه الخاص عن "المحرمات ونقضها" فى إطار الدفعات الحيوية التى تصطرع من خلالها حركة الموت مع الحياة فى جدنية تصل نزعة السقوط إلى الهاوية وانسحاق الذات الواعية بأسمى توجهات القداسة الصوفية الداعية إلى الفناء فى الكل واللامتناهى. كما أن فوكو كان معاصراً ومشاركاً - بسبب تجربته المثلية الفريدة - للثورة الجنسية التى احتدمت خلال السبعينات باسم تحرير الإنسان عن طريق تحرير الجنس، وذلك بقدر ما كانت التحريمات الجنسية تشكل، من منظور "ماركيوز" وبعض علماء النفس الثوريين، جزءاً من "التابو" انبرجوازى الذى لا يستغل ويحتكر فحسب طاقة العمل لدى الخاضعين لسيطرة رأس المال، وإنما يعمل كذلك على قمع وكبت حريتهم فى تحقيق رغباتهم الجنسية حفاظاً على هذه الطاقة نفسها.

غير أن فوكو سيرجع عن كل هذه المفاهيم التى تقوم أساساً على رؤى حيوية ودفعية، كما سينبذ التفسير القانونى الذى كان يقول به "لاكان" ومفاده أن القانون أو التحريم هو «الذى يولد الرغبة والنقص الذى يؤسسها»^(١٥)، أى أن التحريم الذى يقيمه الشرع أو القانون هو الذى يغرى بتحقيق الرغبة المحرمة، وذلك بقدر ما يولد لدى الإنسان نقصاً لا بد من إشباعه. ومن ثم، فى نظر "لاكان" لا يكون هناك انتهاك أو اغتصاب فى عرف الطبيعة، إذ لا يتم ذلك إلا

فى إطار القانون المؤسس للتحريم والمغرى، فى الوقت نفسه، بخرقه على طريقة "كل ممنوع مرغوب".

تتحرك خلال شهر سبتمبر ١٩٧٨ الحشود الطلابية والشعبية فى إيران إرهاباً بالثورة العارمة المقبلة التى ستحتاج البلاد وتنتهى حكم الشاه العتيد. ولكن الحسائر الأولية فادحة: زهاء أربعة آلاف قتيل يقدمها الشعب الإيرانى قرباناً للنصر المرتقب. ولا شك أن فوكر الذى اكتشف فى نفسه بأخرة قوة نضالية هائلة لم ير بدءاً من الحركة والسفر إلى إيران مع بعض الأعوان للقيام بتحقيق صحفى واسع النطاق عن برعث العنف ومصادر السخط المتأجج فى قلوب الإيرانيين ضد حكم مستبد يتخفى تحت مظاهر التجديد والتحديث، وذلك لصالح جريدة "لو كيرييه" (Le Corriere della Sera). ويعتقد فوكر أن هذه الثورة - التى يقودها الخمينى ورجال الدين - تقدم نموذجاً فريداً وغير مسبوق من الثورات الشرقية التى تختلف كل الاختلاف عما عرفته أوروبا من ثورات خلال تاريخها الحديث والمعاصر. ولكن الذى تبينه، فى نهاية المضاف، أن كل الثورات تؤدى إلى العنف وتنتهى، إذا كان حليفها التعصب الدينى، إلى التخلف والاستبداد والجمود. وهذا ما كان بالنسبة للثورة الإيرانية التى كانت وبالأعلى على المنطقة كلها.

وفى بداية عام ١٩٨٠ ينشغل فوكر بعد مغامرته الإيرانية التى انتهت بخيبة أمل كبرى، بقضايا "حكم النفس والآخرين" وبدور

الصحافة، الذى برز مع استفحال الظاهرة الإعلامية، فى ترويج الأفكار المضللة والخلط بين القيم، كما يشغل بتدهور الوظيفة النقدية التى كان يتميز بها الفكر الفرنسى خلال الخمسينيات والستينيات على أيدى العمالقة من أمثال "بارت" و"بلانشو" و"سارتر"، وبشيوع العقلية الحزبية ومنطق الثلة اللذين أصبحا يهيمنان على المجالات الثقافية، وهو ما يعرض الحياة الفكرية وحرية الرأى للخطر الشديد خاصة فى بلد يتمسك بمبادئ الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.

ثم يأتى عام ١٩٨١ بفرصة أمل مشرق مع انتصار الرئيس "فرانسوا ميتران" فى انتخابات رئاسة الجمهورية الفرنسية على اليمين الفاسد الذى كان يمثله "جيسكار ديستان". وتوثق الأواصر بين فوكو والنظام الحاكم الجديد، وتجرى رياح الوعود بمناصب براقة كما يشتهيها السفن: بمنصب مستشار ثقافى أو سفير لفرنسا فى الخارج أو بمنصب مدير للمكتبة الوطنية بباريس؛ ولكن ألاعيب السياسة تنتهى بالقضاء على حلم "شهر العسل" الذى كان ينوى فوكو الاستمتاع به فى أحضان الحكومة الاشتراكية. ثم تأتى ثورة الحركة النقابية فى هولندا، وتنتهى بالقمع الصريح على أيدى الجنرال "جاروزلسكى" والصمت المريب لحكومة اليسار "التقدمى" الفرنسى. وهنا يبلغ السيل الزبى - كما يقال - فيقوم فوكو بمعاونة صديقه القديم "بورديو"، عالم الاجتماع المرموق، بحملة تشهير بالغة العنف ضد النظام الاشتراكى الفرنسى

وحياته لحركات التحرر فى العالم. ثم تتابع المسيرات ونرى فيها كالمعتاد النجم السينمائى والمغنى المعروف "إيف مونتان" والنجمة التى لا تقل شهرة عنه "سيمون سنيوريه". وأخيراً ينجح الحزب الحاكم، بعد تبادل الشتائم والانتقادات العنيفة مع فوكو ومؤيديه، فى تشكيل فريق بقيادة الكاتب "جان-بيير فاي" الذى تنضم إليه بعض الشخصيات اللامعة مثل الكاتب الصحفى "جان لاكوتير" والفيلسوف "يانكيليفتش" وعالم الأحياء "فرانسوا جاكوب". وتنتهى الأمور بالقطيعة وانصراف فوكو إلى تأملاته الفلسفية التى كانت تشغله آنذاك ومن قبل: هو يفكر، بدايةً، فى إجراء دراسة حول تاريخ "نظم الحكم الاشتراكية" وأسباب "فشلها" الدائم فى الحكم؛ إلا أنه ينتهى بالرجوع إلى اهتماماته السابقة، وعلى رأسها استكمال بحوثه وتنقياته عبر النصوص اليونانية واللاتينية حول "تاريخ الجنس" وما تفتق ذهنه عنه من مفاهيم وتصورات جديدة فى هذا المجال على نحو "الانشغال بالذات" ومدى الارتباط بين "القيم الأخلاقية والنشاط الجنسى" و"علاقة الحقيقة بالذات" فى التراث الغربى، وهى قضايا سوف يعالجها فى آخر كتابين له قبيل وفاته: كتاب "استخدام المملذات"، وكتاب "الانشغال بالذات" (١٩٨٤).

يبد أن كل هذه الاهتمامات ما كانت لتحد من حركة فوكو وميله إلى السفر والترحال، فهو خلال الأعوام ١٩٨٠ و ١٩٨٢ و ١٩٨٣ لم يكف عن ارتياد الجامعات الأمريكية و"بركلى" بوجه خاص، كما زار

اليابان والبرازيل وكندا. إلا أن كلفه بالولايات المتحدة الأمريكية كان عظيمًا بالرغم من عدم اكتراث معظم المفكرين الأمريكيين بالفلسفة الفرنسية التي كانوا يعتونها بالغموض والضبابية "ضبابية أكلة الضفادع" (Frog Fog) نظرًا لانشغال الفكر الأمريكي بقضايا المنطق وعلوم اللغة وانصرافه عن التأملات الأخلاقية والذاتية. كما كان يعيب المتحفظون من المفكرين الأمريكيين على فوكو "تطرفه" أو شططه الفكرى ويشين التقدميون منهم "انحلاله" و"عدميته". غير أن فوكو كان يعشق الولايات المتحدة، وكان يؤثر، بوجه خاص، البقاء فى ولاية "كاليفورنيا" أكثر من غيرها، وذلك بغرض إشباع ميوله المثلية بعيدًا عن كل لوم وتثريب، بل وإيمانه الراسخ بأن هذه الولاية تمثل "جنة الله على أرضه". إلا أن هذا الحلم "الأمريكى" لن يدوم طويلًا؛ إذ أن فوكو، إثر عودته إلى وطنه، بدأ يشعر، خلال شهر يونيو ١٩٨٤، بآلام مبرحة نقل على إثرها إلى مستشفى "لاسلبيتريار" (La Salpêtrière) الذى ضالما أُرِخ له فى كتابه الشهير عن "تاريخ الجنون" وحيث لفظ أنفاسه الأخيرة فى الخامس والعشرين من الشهر نفسه متأثرًا بإصابته -على الأرجح- بمرض "الإيدز".^(١٦)

يتضح لنا بعد هذا العرض الشامل لأهم أحداث حياة فوكو، ولأهم القضايا الفكرية التى شغلته طوال هذه الحياة الحافلة بالنضال

الثورى والخصومات الفكرية والتحولات فى الرؤى والتصورات، أنه كان يُعنى فى البداية بمسائل ومشكلات سيكولوجية بحتة، وخاصة ما يتصل منها بالسيكولوجية الباثولوجية. إلا أن تصوره لهذا العلم لم يكن يمت، فى الأغلب، إلى التيار الوضعى الذى تم نقده، فى ظنى، لأول مرة على يد "هوسرل" فى كتابه المشهور عن "أزمة العلوم الأوروبية"^(١٧). ذلك أن فوكو كان متأثراً، فى البداية، بالمنهج الفينومينولوجى، وبوجه خاص بأعمال "ميرلو بونتى" و"هيدجر"؛ ولقد رأينا اهتمامه البالغ بكتاب "الحلم والوجود" للعالم السويسرى "بنسفنجر" الذى ترجمه مع قريبته "جاكلين فيردو" من الألمانية إلى الفرنسية، كما قدم له بمقدمة تشكل، فى الواقع، دراسة فاحصة وثاقبة، مضافة إلى النص، فى التحليل النفسى الوجودى.

ومن هنا يمكن فهم ابتعاد فوكو عن الدراسات الإستمولوجية الخالصة؛ إذ أنه لا يُعنى، على وجه التحديد، بقضايا العلم على شاكلة باشلار فى دراساته العلمية البحتة أو "كون" أو "كويريه" أو "كارل بوبر"، وإنما بما أسماه "أركيولوجيا المعرفة"، ويقصد بذلك المستوى الذى تصل إليه العلوم قبل استقرارها النهائى فى صيغتها الوضعية المُنقنة، أى مرحلة التقعيد والتنظير. من ثم، تظهر اهتماماته بدراسة مواد علمية أو مفاهيم تاريخية فى مرحلة التكوين والتشكيل بحيث تتاح له إمكانية إعادة تفكيكها وبعثرة عناصرها المكونة لها وردها إلى أصولها ومصادرها

المختلفة، التي قد تكون اجتماعية أو دينية أو إدارية مضافة إلى نواتها المعرفية الأولية على شاکلة العلوم الكلاسيكية كالتاريخ الطبيعي والاقتصاد أو علم الثروات وعلوم اللغة، وعلم النفس الباثولوجى فى القرن التاسع عشر.

أضف إلى ذلك أن فوكو سيحدد لنا، بعد ذلك فى كتابه المنهجى المشهور "أركيولوجيا المعرفة" (١٩٦٩) الذى يُنظر فيه بآخرة لتصوراته وركائزه الفكرية، أن مصب اهتمامه لم يكن قط تاريخ الفكر أو تطور المناهج والنظريات العلمية أو الفلسفية، وإنما محاور ارتكازها أو "تمفصلها" كما يجب أن يقول إخواننا المغاربة، أو بعبارة أدق الشروط القبلية التاريخية (التاريخ هو ما يميزه عن "كانط") التى تُتيح لبعض العلوم أو التصورات إمكانية الوجود والأخرى استحالة هذه الإمكانية. فـ"الأركيولوجيا"، من ثم، وليست "الجيولوجيا" كما حاول سارتر وتلاميذه أن يعتنوها، هى دراسة هذه الأرضية التى تشكل حفرياتها "أرشيف" المعارف فى عصر من العصور أو حقبة من الحقب. وهى "أركيولوجيا" ليس لمجرد كونها تنقيًا عن العلامات أو الأسس الغائرة للتكوينات الفكرية الظاهرة، وإنما لكونها تبحث عن مستوى سائد أو مهيمن يمكنه تفسير معظم المستويات الأخرى كشكليات أو تنريعات تتمفصل حول هذا المستوى الرئيسى، بينما فى "الجيولوجيا" قد تتداخل الطبقات والعصور المختلفة ويصعب، من ثم، تمييز التكوين الغالب.

وإذا كان فوكو يبحث عن تشكيلات الفكر وأنساق المعرفة، فإنما هو يبحث عنها عبر منطوقات أو أحكام تمت تاريخيًا، ولا يحاول عن طريق النتائج التي يتوصل إليها استنباط قواعد عامة قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان على طريقة الشكلائية أو البنيوية. ومن هنا نفهم أيضًا كيف سيتخلى فوكو عن مشاريعه في قراءة بواطن الأشياء واستنطاق دلالات الصمت المعبر، كما كان يريد في دراسته الأولى عن "الجنون" حيث طمح إلى "إعطاء الكلمة للجنون" وفقًا لتعبيره للمأثور. وليس من شك في أن ذلك المطمح كان وثيق الصلة بالمنهج الفينومينولوجية التي تقول بوجود حدس أولى وشمولى للظاهرة التي يواجهها الفيلسوف أو الباحث الظاهراتي، وما عليه، بعد ذلك، إلا استكشاف التحليات المختلفة لهذه الظاهرة عن طريق تجاوز الظاهر إلى الباطن والعودة من الباطن إلى الظاهر عبر علاقات من التبادل والتكامل تشكلها حركة الشعور نفسه انطلاقًا من النواة الأولية المؤسسة للقصدية والموجهة لها نحو العالم الموضوع، وارتدادًا من العالم في حركته المتفاعلة معها والمشكلة لمضامين الدلالة وموضوعاتها الامبريقية.

وتبرز هذه القطيعة بين دلالات الأشياء أو الموضوعات وحدسها في دراسة فوكو عن "نشأة العيادة" (١٩٦٣) حيث يتخلى، كما يقول، عن "كنز المعاني الأولية المترسبة في قرارة الأشياء" لبحث عن لغة تنظيم الموضوعات والمفاهيم والرؤى؛ إذ أنه لا معنى ولا دلالة قبل قيام

اللغة وانتظام حقول عملها فى علاقات تمايز وتمائز أساسية ومضافة. وهنا يبدو تأثره بالمنهج البيوية واضحًا، بل ولا ينكره الكاتب فى مقدمة الكتاب نفسه. ومن ثم؛ يسمح هذا اتوجه الجديد لفوكو بدحض فكرة الرؤية العيانية للعالم الخارجى والاستفادة المباشرة من الملاحظة والتجربة الحسية أو الامبريقية، كما يذهب معظم مؤرخى العلوم بالنسبة لتحول المنهج العلمى خلال القرن الثامن عشر مقارنة بالرؤية الاستدلالية أو الاستنباطية العامة التى كانت مهيمنة على العلم الكلاسيكى. ذلك أن فوكو يرى أن نقطة التحول أو القطيعة المعرفية فى الأرضية الاستمولوجية بين الرؤية الكلاسيكية ذات البعد الرياضى والتصنيفى وبين امبريقية القرن الثامن عشر المتأثرة بالعلم الإنجليزى وفلسفته (لوك) ليست فى اكتشاف أهمية الواقع الخارجى وتخليص الفكر من التصورات الميتافيزيقية السابقة على الوجود مثلما كان الأمر عند "ديكارت" و"سينوزا" و"لينتز"، وإنما هى فى تعديل لغة البحث نفسه ومنطقه الكشفى. ويسعى فوكو، تأكيدًا لمنظوره هذا، إلى إبراز النقلة من مبدأ الوصف الخارجى العام، الذى تقوم عليه الرؤية الكلاسيكية فى الطب المتأثرة بالنموذج النباتى؛ إلى عملية اكتشاف وظائف الأعضاء وأهمية تشريح الجسم على أيدى "بيشا" (Bichat) مؤسس علم الأنسجة. وهكذا تتغير، عن طريق هذه النقلة الأساسية، لغة المنهج العلمى نفسه من مجرد عملية تصنيفية للظواهر البارزة إلى

عملية استجلاء للوظائف الحيوية الغائرة التي تحكم هذه انظواهر وتوجهها فى حالة الصحة. ومن ثم، يأخذ منهج الملاحظة الناشئ على يدي "جاليليو" ثم "نيوتن" مكانته فى سلسلة طويلة من التحولات تقود من الملاحظة إلى التجربة ومن التجربة إلى التجريب؛ كما يأخذ انوت فى مجال الطب صورته الحديثة المؤسسة للحياة بحيث يصبح تشريح حدث انوتى مرحلة ضرورية لفهم وظائف الحياة التى ستقوم الفيزيولوجيا بدراستها وتعريفها، وبحيث يتحول علم الباثولوجيا من دراسة وصفية وتصنيفية لماهيات (nosologie) الأمراض فى ذاتها إلى دراسة للأمراض عبر أعراضها المباشرة والتنبؤ بمآلها كنوع من الحوادث التى تضرأ على الجسم فتعطل وظائفه وتعوق عمله الطبيعى والسوى.

وما يحدث فى لغة الطب ليس إلا جزءأ من لغة عامة تحكم العلاقة بين "الكلمات والأشياء" (١٩٦٦)، أى معظم المجالات المعرفية والعلمية التى عرفها القرن السابع عشر عبر ما أسماه علماءه بعلم اللغة والثروة والتاريخ الطبيعى وما سوف يُعرف فيما بعد تحت مسمى انغويات والاقتصاد السياسى والبيولوجيا. ولقد عنى فوكو فى كتابه المذكور بإبراز العلاقات التى تنظم هذه العلوم جميعأ، وبردها إلى محور ابستمولوجى واحد أو غالب، وفقاً لمبادئ الأركيولوجيا المعرفية التى ارتضاها لنفسه مذهبأ. من ثم، نراه يُحدد قيام علوم عصر النهضة على ضرب من التشابه الجوهري الذى يربط الإنسان، هذا الكون المصغر،

بالكون الأكبر ويرده إليه، كما ترد إلينا المرأة صورتنا؛ وهو تشابه لا يعدو ضربين رئيسيين من التجاذب والتنافر أو الائتلاف والاختلاف، بحيث تبقى الأشياء على ما هي عليه مكررة نفسها إلى ما لا نهاية، وبحيث ينسب الكون أماننا ككتاب مفتوح نقرأ فيه آيات الخلق ورموز الأشياء والموجودات والمخلوقات في تناغم بديع وتقابل رائع، وبحيث لا يتجاوز العلم ألواناً من التفسير والتأويل يربط فيها، عن طريق الكناية والاستعارة والتشبيه والحجاز، بين العناصر والكائنات، أو يزوج في تشكيلات خيالية بديعة بين الظاهر والباطن أو الشاهد والغائب والجلي والمستور. ثم يتحرر العصر الكلاسيكي، بفضل النموذج الرياضي والجدولة التصنيفية من بواطن الأشياء وأوهامها "الكيميائية" القديمة لنييلور لنا لغة بالغة التجريد لا تتعدى، في إشارتها إلى نظام الأشياء، عملتى التماثل والاختلاف، وهو ما يسمح بتصنيف جميع الكائنات والموجودات في جداول لا حدود لها تقوم في العقل نفسه أكثر مما تقوم في الطبيعة. ومن ثم، يصبح علم اللغة تصنيفاً منطقياً للتصورات وتوزيعاً هرمياً لها وفقاً لدرجة تقدم الشعوب، وعلم الطبيعة تصنيفاً للكائنات والنباتات والمخلوقات، وعلم الاقتصاد لغة لتنظيم الثروة وتوزيعها وفقاً لرموزها النقدية من المعادن النفيسة التي تلعب، على حد سواء وقبل اكتشاف العملة الورقية، دور العلامة ودور القيمة في تلاحم تام لا تؤثر فيه

إلا الكميات المتوفرة أو المخزونة إذ كلما زادت زاد النماء والرخاء، وكلما شحت وندرت شاع الفقر وتفاقت الأزمة.

إلا أن هذه اللغة الصامتة التي تربط العقل المجرد بالطبيعة، والفكر بكل ما يمكنه تصوره فى حدود المنطق لا الواقع أو التجربة، نسيت أو تناست الموجود البشرى فى صورته القرية ككائن تاريخى خاضع للإحساس والشعور ومرتبطة بتجربة فريدة ومحدودة؛ فهو ليس تصورًا محضًا ولا روحًا خالصة، وإنما جسم له كثافته ونبضه وحتمياته، وشعور يشكل الأنا ويرسم حدودها فى ظل العلاقة بالآخر والوجود. الإنسان كائن يتكلم ولكن اللغة مفروضة عليه، ويعمل ليعيش ولكن نظام العمل والإنتاج قدر يخضع له ولا يختاره، ويتوالد ويتكاثر، ومن ثم يتبع نظامًا عامًا للحياة. إن مطمح العلم فى القرن التاسع عشر، عصر الوضعية والتطور والتاريخ، على خلاف القرن السابع عشر أو الثامن عشر اللذين لا يُعنيان إلا بالطبيعة البشرية العامة، هو إدراك قوانين الحتمية التى تحكم القبض على مصير الإنسيان، وتفسره فى تعينه الموضوعى كنتاج تاريخى خاضع لقوانين البيئة وحتميات الوراثة والضرورات الاقتصادية.

غير أن فوكو سرعان ما يدرك أن هذا المطمح الوضعى للعلم يتعارض تعارضًا جذريًا مع "طبيعة" الإنسان نفسه، ألا وهو كونه مخلوقًا يرغب ويتصور ويحلم؛ أى أنه لا يمكن أن يكون الإنسان موضوعًا

خالصاً، ويؤسس، فى الوقت نفسه، علماً موضوعياً خاصاً به؛ ذلك أن هذه الموضوعية التى يطمح إليها العلم، أى علم، لا تتجاوز معرفة وظائفه العضوية وما فرضه عليها عالم الحاجة، وهو - من غير شك - أبعد بكثير من هذا الكائن القريب، أساس كل بُعد وقرب، كما يقول "هيدجر". إن الإنسان ذات، لا مرء، ذات تعمل على تشكيها القواعد الأخلاقية وقوانين العرف الاجتماعى والفوارق الطبقة وعلاقات القوة التى تربط السادة بالمسودين؛ إلا أنها ذات حرة يتوصل فوكر إلى اكتشاف كل أبعادها فى أخريات حياته. وهى ليست حرة بالمعنى النظرى أو التجريدى الذى ينطلق منه "سارتر" - مثلاً - فى فهمه للوجود الإنسانى، وليست ملازمة لحياة الشعور القصدى، كما تحدده لنا الظاهراتية. كما أنها لا تتصل البتة بالمفاهيم النفسية أو النفسانية التى تربط بين الذات والأنا أو تقيم جسراً خفياً ومراوفاً بينها وبين اللاشعور. إن هذه الذات لم تتشكل، فى الواقع، عند فوكر إلا بعد تجربة غائرة الجذور للجسم، وبعد خبرة شخصية هائلة بوضعه المقلقل بين أفراد المجتمع وبين ما يُسمى بدخيلة الإنسان. وليس من شك فى أن التجربة التاريخية، الضاربة بجذورها إلى الماضى البعيد أو القريب على حد سواء، تبدأ مع دراسة الكاتب الفذة عن "نشأة السجن" (١٩٧٥) واكتشاف الوظائف المسكوت عنها التى يؤديها الجسم فى قلب المجتمع الليبرالى الناشئ فى مطلع القرن التاسع عشر. إن اكتشاف وظيفة الجسم فى

المجتمع ربما يكون قد بدأ مع كُتُب القرن الثامن عشر، عصر الاهتمام
بفيزياء الأشياء، أى بحركتها وسكونها، قبل أن ينزل الاهتمام فى القرن
التالى إلى وظائفه الحيوية ومرتبته فى سلم الكائنات الحية، إلا أن فوكو
لن يكتفى بهذه التصورات المخنوقة تاريخياً للجسم، خاصة بعد أن أصبح
يُعنى بتتبع جذور الظواهر، وفقاً للمنهج "الجنينالوجى: الذى اتبعه بآخرة
تحت تأثير قراءاته لفيلسوف إرادة القوة "نيتشة".

ومن ثم يحاول فوكو، ليس وصف الجسم على الطريقة
الظاهراتية، وإنما إدراك وظيفته فى العصور الوسطى وإبان العصر
الكلاسيكى من خلال نظام الجزاء والعقوبات، وهو ما يضع يده على
هذه الحقيقة الناصعة، وهى أن العلاقة بين العقاب الصارم مثل القتل
حرقاً أو فسخاً أو تمزيق الأوصال علناً وبين السلطة الملكية أو الإقطاعية
تقوم أساساً على سوء تقدير للجسم من حيث هو قوة إنتاجية. ومن
ثم، تصبح علاقة الحاكم بالمحكومين والسادة بالمسودين هى القدرة على
سلب الحياة. أضف إلى ذلك أن هذه القدرة على عطاء الموت تتخذ من
طابع العن معنى رمزياً يختلف باختلاف درجات السلطة والهيمنة وفقاً
للتوزيع الهرمى لطبقات المجتمع وفعاته. والدليل على ذلك هو أن نظام
العدالة فى العصور الوسطى كان يخول الإقطاعى سلطة معاقبة الجناة
أو العصاة من أتباعه. وكانت هذه السلطة الجزائية تنقسم إلى نوعين
رئيسيين من العدالة: العدالة العليا وتشمل حق الإعدام، والعدالة الوسطى

أو السفلى وتشمل كل ضروب الجزاءات الأخرى من جلد وسجن وتسخير الجناة للعمل فى الإقطاعية. إلا أن صعود الملكية، مع بروز الطبقات البرجوازية المناوئة لها بدءاً من القرن الثالث عشر على وجه التقريب، صحبه سحب سلطة الإعدام من أيدي النبلاء، بحيث يصبح حق القتل وسلب الحياة جزءاً لا يتجزأ من السلطات العليا والاختصاصات الاستثنائية التى يتمتع بها النظام الملكى.

إلا أن تغير علاقات الإنتاج خلال فترة تحول المجتمع الإقطاعى إلى مجتمع رأسمالى وتغير المفاهيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى الأخلاقية التى ركبها أبرزها أهمية الجسم كقوة عمل بالغة الأهمية فى سبيل رفع مستوى الإنتاج وزيادة الثروة القومية. ومن ثم، اهتمام الدولة بالسيطرة على الأجسام وتسخيرها بواسطة نظم الضبط التى تبلورت، فى فترة بناء الدولة الحديثة، من خلال مؤسسات العقاب والإيواء والتدريب كالتسجون والملاجئ والمستشفيات العقلية والورش والمعسكرات، وتوفير انفرص الملائمة لحياة أفضل وأكثر تنظيمًا عن الماضى من أجل تنمية القوة الاقتصادية والعسكرية للدولة، ومن ثم إعلاء مكانتها وهيبتها بين الدول. وليس من شك فى أن هذه الضرورات التى يفرضها التحول التاريخى من النظام الإقطاعى المتهالك إلى النظام الرأسمالى الحديث لا يمكن أن ترقى إلى مستوى الوعى إلا مُصاحبةً أو مسبقةً بضرورات أخرى، هى ضرورات الإدراك والفهم والتنظيم التى تبلور،

كممارسات فكرية، من خلال العلوم الناشئة: الاقتصاد السياسى الذى يلور دور الطبقات الاجتماعية فى الإنتاج وعملية توزيع الثروة، وعلاقة الثروة، وعلاقة السوق بنظام العمل وحركة الأسعار، وتحقيق الأمن أو الاستقرار الاجتماعى، وعلم السكان الناشئ الذى يهدف إلى تنظيم عمليات التكاثر وربطها باحتياجات الدولة وإلى عقلنة نظام جبى الضرائب على ضوء تعداد الأسر وحصر الدخول، وربما أيضًا إلى تحقيق نوع من النمو المنضبط كما كان يحلم الأب "مالطس". هذا بالإضافة إلى العلوم الأخرى التى ترى النور خلال القرن التاسع عشر لا لتضيف فكرًا إلى فكر وإنما لتعالج القضايا والمشاكل التى يُولدها المجتمع الصناعى مثل علم الاجتماع، وعلم النفس العام، والعلوم الجنائية والأنثروبولوجية وحتى اللغوية، وهى علوم تسلط جميعًا أضواءها على الإنسان فى علاقته بنفسه وما يحيط به بينما كان الفكر الكلاسيكى لا يرى فى العلم إلا موضوعه وكأنه معزول تمامًا عن كل ما يُحيط به من عوامل نفسية واجتماعية وبيئية.

وإذا كان الجسم هو المجال المعلن الذى مارست من خلاله السلطة السياسية وما ينوب عنها من محددات وموجهات تنظيمية واقتصادية وقانونية كل صنف الضبط والتطويع، فإن الجسم لا قيمة له ولا روح فيه إذا لم يكن هناك اتساق وتكامل بينه وبين الذات أو النفس التى تشكل هويته وخصوصيته إلا أن تطويع الذات لم يكن لاحقًا على

ضبط الجسم وتنظيمه، كما قد يُخيل إلينا من المنظور المادى المباشر، فالجسم - كما يرى فوكو بحق - ليس سجنًا للنفس، كما أكد أبو العلاء والفكر الموروث كله، وإنما النفس هى السجن الحقيقى والفعلى للجسم بقدر ما تفرضه عليه من محاذير وترسم له من حدود وتصورات.

ولقد لاحظ فوكو أن الذات، فى نهاية الأمر، ليست تشكيلاً وجدائياً أو داخلياً، كما يحاول علم النفس أن يقنعنا، ولا هى نوع من صراع "الأعماق" بين الدفعات الأولية والضرورات "الفوقية" التى يفرضها علينا العقل. ذلك أنه ليس هناك رؤية داخلية مستقلة، وليس هناك وجود خارجى مستقل عن كل تصور قبلى، وإنما هى "الأعيب" المرأة التى يُحسن تحليلها "رورتى" (Rorty). كما أن العقل ليس بناءً قَبْلياً مجرداً ولا نظاماً خارجاً عن التاريخ، فهو ليس إلا نتاجاً لممارسات تاريخية تشكلت عبر مجموعة من القواعد والتنظيمات؛ والذات بدورها ليست إلا محصلة هذه العلاقات المتشابكة التى تنشأ من ضغط هذه القواعد والتنظيمات؛ ومن ردود الفعل التى تسجلها حركة مقاومة هذه التنظيمات نفسها.

بمعنى آخر، لقد استطاع فوكو عن طريق ما سُمى بالمنهج "الإسمى" تفريغ هذه القواعد التنظيمية، التى شيعناها فى صورة ماهيات ثابتة كالنفس والعقل والذات، من دلالاتها ومضامينها المتعينة وتحرير آلياتها الصورية والوظيفية العامة ليحدد معناها كضروب من الممارسات

التاريخية الفعلية. ومن هنا، يصبح من الصعب أن تتطابق بعض المفاهيم والتصورات العامة عبر العصور بحجة الحديث عن الطبيعة البشرية أو الدفقات الحيوية الأساسية، بل وحتى التحدث عن مبادئ طبيعية أو أعراف وقوانين سوية بطريقة مطلقة.

ولقد حاول فوكو أن ينفذ عبر هذه التصورات الإسمية إلى ما يشكل هوية الذات الغربية وإلى البواعث المسكوت عنها التي ربطت بين هذه الهوية ومشكلة الرغبة الجنسية والأخلاق، كما حاول أن يربط بين هذه القضايا المصدرية، التي تخص كل الثقافات في الواقع، وبين منظور الجسم في العالم الغربي الحديث والمعاصر. والسؤال الأساسي الذي طرحه فوكو على نفسه، خاصة بعد قيام "الثورة الجنسية" في السبعينات ودعوة "الفرويديين-الماركسيين" إلى تحرير الرغبة الجنسية حتى يتم تحرير الإنسان نهائياً من قهر النظام الرأسمالي وتمسكه الزائف بفضيلة السيطرة على الغرائز على أساس أن هذه الأخلاقيات "الجنبلية" ما هي إلا صورة مقنعة من وسائل السيطرة على طاقة العمل التي يفرضها النظام الرأسمالي للحفاظ على إنتاجية العامل وضمان استمرار حصول الطبقات السائدة على فائض القيمة. إلا أن فوكو رفض هذا المنظور لقيامه على مغالطة أساسية وهي أن هذا التفسير لا يكشف من واقع العلاقة الجنسية شيئاً، كما يقوم على وهم الإحساس بالقهر والاضطهاد لدى الشعوب التي عاشت طويلاً تحت سطوة القانون مثل الشعب

الفرنسى؛ وهو، على كل حال، لا يفصح عن شيء لأن المجتمعات المعروفة بتشددها، ومنها على سبيل المثال المجتمع الفيكتوري، لم تضع حدوداً فعلية للنشاط الجنسي وإنما اصططعت، فى الأغلب، نوعاً من الازدواجية السلوكية ترعرعت من خلالها أخلاقيات النفاق والمراوغة والتضليل، وهو الأمر الذى ينسحب فى الواقع، على كل المجتمعات الاستبدادية ذات الأخلاقيات الشكلية أو الصورية. كما لاحظ فوكو أن هذا التشدد الظاهرى قد صاحبه فى فرنسا، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بوجه خاص، نوع من الحث المستمر على ممارسة طقس الاعتراف (ليس غريباً إذن أن يؤسس "روسو" فن الاعتراف إبان القرن الثامن عشر)، الأمر الذى شكل رصيذاً ضخماً من المعرفة الجنسية والنفسية كانت، من جهة، ذخراً للمجتمع الرأسمالى الانضباطى الناشئ لتطويع علم السكان ببعديه الاقتصادى والديموغرافى، ومن جهة أخرى، خلفية "أركيولوجية" أو "أرشفية" تاريخياً كان بمثابة إحدى الشروط القبلية أو الضرورية لقيام علم التحليل النفسى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ويبقى مع هذا التفسير العام سؤال يستزعى الانتباه، وهو لماذا كان الغرب هو الجزء الوحيد من العالم الذى بلور علماً خاصاً بالجنس بدأ مع التحليل النفسى (فرويد) والعصبى (شاركو) لعالم الرغبات والأمراض النفسية الملازمة لها، واستمر بعد ذلك غير علم متخصص

للجنس (sexologie) ومنافس للتحليل النفسى بقدر اهتمامه بمسائل "الصحة الجنسية"^(١٨). هذا بينما لم يتبلور فى العالم الشرقى إلا ضروب من الفنون الجنسية التى تهدف فى معظمها إلى تضيوع الرجل وتحقيق توازنه البدنى والنفسى. وهنا يرى فوكو أن الاهتمام بالجنس عبر التاريخ الغربى كان، فى البداية، عند اليونانيين القدماء، جزءاً لا يتجزأ من مبادئ الصحة العامة، ونوعاً من تنظيم الملذات سواء منها الجسدية أو الغذائية، وذلك حفاظاً على تماسك الطبقة الأرستقراطية الحاكمة؛ بينما حاولت المسيحية منذ البداية تأثيم العلاقة الجنسية، ولم ترض بها إلا لضرورة التناسل فى إطار الزواج الذى لا يفك عراه إلا الموت. وهذا لا يعنى، كما يذهب فوكو، أن اليونانيين القدماء أتاحوا قيام العلاقات الجنسية، وحتى المثلية منها، من غير حدود ولا ضوابط؛ إذ أنهم، فى الواقع، كانوا ينطلقون فى كل سلوكياتهم من مبدأ الاعتدال أو التوازن الذى يعد أساس القيم والفضائل عندهم. إلا أن أخلاقيات الاعتدال هذه لم تكن تحكم إلا سلوكيات طبقة السادة التى سيناظ بها، فى يوم من الأيام، حكم الآخرين. ومن ثم، فلا يليق بمن يحكم الناس ويصرف شئونهم ان لا يستطيع التحكم فى شهواته أو يعجز عن كبح جماح نفسه. ومن هنا تظل المسيحية، فى نظر فوكو، هى المسئولة الرئيسية عن تحويل فكرة "الخطأ" اليونانية إلى فكرة "الخطيئة" التى كان ما كان لها من آثار ضخمة فى لفت النظر نحو "خطورة" الرغبات

الجنسية وما تقوم به من دور أساسى فى تحديد أخلاقيات الفرد وبلورة شخصيته وهويته.

وإذا كانت المسيحية الغربية قد عمقت فكرة الخطيئة وجعلت منها محور الحياة الأخلاقية، فإنها كذلك طبعت الجسم بكل إشكاليات الغواية والإغراء، وشحنته، من ثم، عن طريق المنع والتحریم، إلا بقصد غايته الوظيفية البحتة وهى التناسل، بطاقة جذب هائلة عمل التحليل النفسى، وريث تقنيات الاعتراف، على تعميقها وبلورتها فى صورة العقد النفسية المشهورة (عقدة "أرديب"، "إلكترا"، وغواية "الزنا المحارم" وغير ذلك). وإذا كان التحليل النفسى الفرويدى وصورته "اللاكانية" الحديثة قد دُمغا بتهمة القيام بوظيفة السلطة الأبوية وبوظيفة الدفاع عن الأعراف والتقاليد المجتمعية الموروثة باسم السوية، فإن فوكو قد فطن إلى أن التحليل النفسى فى تركيزه على حصر جاذبية الجنس ومنطقة التوتر داخل الأسرة (الوظيفة الجنسية "الإغرائية" وليس مجرد الوظيفة التناسلية والتصاهرية للمرأة الحديثة تبرز فى فرنسا خلال القرن الثامن عشر) انتهى بتحميل المرأة العبء الأكبر فى كل ما يحدث من انحرافات وفى بث نوع من العلاقات المشبوهة أو المقنعة، وهى التى بلورها - كما سبق القول - تحت مسمى العقد أو المركبات النفسية. ولعلنا نعلم جميعاً أن معظم الأمراض العصابية تنشأ فى قلب الأسرة ومن اضطراب علاقة الوالدين بالأبناء.

ويرى فوكو أن التحليل النفسى إذا كان قد استطاع لعب هذا الدور الدفاعى باسم رفع الكبت وإعادة التوازن الأسرى والاجتماعى، فذلك مرجعه إلى كون البنية السلطوية-القانونية التى اتخذتها أشكال الحكم الملكى فى العالم الغربى منذ القرن السادس عشر، هى التى هيات له الظروف الملائمة للقيام بهذا الدور. ومن هنا نفهم لماذا يثور فوكو على التحليل النفسى بآخرة ويعتبره أحد القيود المقنعة التى ابتدعها المجتمع البرجوازى التسلطى، بعد انحسار وظيفة الدين به، لتقييد العلاقات الجنسية وتحديد مناطق فى الجسم للسوية والشذوذ، وهو ما يرفضه فوكو -ونفهم لماذا- باسم تحرير الإنسان وتحقيق ترضوه الكامل. ولكن هل يعنى هذا الموقف رفض فوكو لكل المعايير أو القيم الأخلاقية؟ إنه ليصعب علينا، فى الواقع إدعاء ذلك، خاصة وأن الكاتب، بعد صرفه الشق الأكبر من حياته، فى البداية، بحثاً عن الجذور التاريخية لمؤسسات القمع وتطويع الإنسان ليكون آلة طيعة فى أيدي الطبقات السائدة، أخذ يُعنى بقضايا "الانشغال بالذات"، وهى قضايا تعد الأسس الأولية أو شروط الإمكان القبلية لقيام التصورات والأحكام الأخلاقية. إلا أن الأخلاق التى يريد بلورتها فوكو، ليست تلك التى تتخذ صورة القواعد الإلزامية العامة على طريقة "كانط" (La Morale)؛ وإنما ما يُسمى بأخلاقيات الفعل والسلوك (L'Ethique) التى يناط الحكم فيها -فى نهاية الأمر- إلى تقديرنا لذاتنا واحترامنا لأنفسنا. ولقد نحيلُ إلى فوكو،

فى المرحلة التى سبقت وفاته، أنه قد وجد ضالته، أى النموذج الأسمى للأخلاقيات التى يبحث عنها فى اليونان القديم، أى نموذج يُرد فيه الحكم الأخلاقى إلى تقدير "الفرد" نفسه وإلى تقييمه الشخصى لسلوكه من غير أية ضغوط خارجية.

وليس من شك فى أن هناك انتقادات كثيرة خاصة بسوء فهمه للأخلاقيات اليونانية القديمة، وبمفهومه المبالغ فيه للفردية وحدودها عند اليونانيين القدماء. ولكن السؤال المطروح يظل هو: هل أصاب فوكو أم أخطأ فيما ذهب إليه؟ ويصعب، فى الواقع، الحكم عليه من الخارج، طالما هو قد ارتضى لنفسه نوعاً من الالتزام الداخلى البحث. ومهما يكن الأمر بشأن الحكم الأخلاقى على فوكو، فإن مؤلفات هذا الرجل وأعماله النضالية الفذة ضد العنصرية والاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى ستظل علامة مشرقة على طريق الفكر الثورى البناء والكفاح الشريف من أجل عالم أفضل.

هوامش البحث

^(١) Gilles Deleuze et Félix Guattari, *Capitalisme et Schizophrénie*.

Mille Plateaux. Paris, Minuit, 1980, pp. 9-50.

ما يعتقه الكاتبان بالمنهج "الريزوماتى" وما يمكننا ترجمته بالمنهج "العُسقولى" أو "البُصيلى" هو نوع من التصور الانفصامى أو التفتتى للكتاب وعملية الكتابة بحيث يحل مبدأ

"العقول" السطحي محل الجذر والشجرة الغائرة الجذور. من ثم يقوم التصور العسقولى على افتراض تعدد مستويات النصوص وتكاثرها العشوائى اللامتناسق، وعلى استبعاد فكرة الجذر وما يوحى به من وسوخ ووحدة مصلرية، حتى وإن بدت متفرعة. من ثم، تستبعد القراءة "الريزوماتية" كل تحذر حول الكاتب وقصديته لتحل محلها صورة الخريطة القابلة لتعدد المداخل والمخارج والتشكيلات والقراءات؛ ويشبهها الكاتبان لذلك بحركة البدو الرحل الذين لا يعرفون الثبات والاستقرار وإنما ينجحون إلى الانسلاخ الدائم واختراق الحدود والحواجز تمامًا كما يمكن أن تتقابل وتتجاوز فى النص الواحد، من غير أن تتوحد وتتجانس، الأبعاد اللغوية والنفسية والإعلامية والرمزية وغيرها.

Didier Eribon, Michel Foucault. Paris, Flammarion, 1989, pp. (٢) 26-37.

إننا نعلم على هذا الكتاب كمصدر أساسى نستقى منه أحداث حياة فوكو الشخصية والدراسية والعامة، وهو يعد حتى الآن أوفى دراسة كرست لهذا الموضوع.

Michel Foucault, "Nietzsche, La Généalogie et l'Histoire", in (٣) Hommage à Jean Hippolite. Paris, P.U.F., 1971.

(٤) ديديه إريبون، ميشيل فوكو، المرجع الفرنسى المذكور، ص ٤٤-٥٤.

(٥) المرجع نفسه، ص ٦١-٧٨ وكتابنا نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو. الإسكندرية، المعرفة الجامعية، ١٩٩٢، ص ١٥٩-١٧٠.

(٦) ديديه إريبون، المرجع المذكور، ص ٩٥-١٢٢.

(٧) سوف يلور "حاك دريدا" هذه النقطة فى محاضرة عامة، ثم ينشرها فى كتابه "الكتابة والاختلاف"، وسيكون ذلك سبباً فى قطيعة طويلة لدى بين فوكو وتلميذه المتمرد "دريدا". انظر جوانب الاختلاف الفكرى فى كتابنا "نظرية المعرفة والسلطة" المذكور، ص ١٨٠ - ١٨٢.

(٨) ديديه إريبون، المرجع الفرنسى المذكور، ص ١٢٥-١٥٠.

(٩) المرجع نفسه، ص ١٥٦-١٨١ وكتابنا نظرية المعرفة والسلطة، ص ١٤٨، و ص ٣٣٢-٣٣٣.

(١٠) د. محمد علي الكردى، "معارضة البنيوية"، دورية علامات، مايو ١٩٩١-ذى القعدة

١٤١١هـ، العدد الأول، ص ص ١٣٦-١٣٧.

(١١) كتابنا العرفة والسلطة، ص ص ٩٣-١٠٨.

(١٢) ديديه إريون، المرجع المذكور، ص ص ١٨٢-٢٠٧.

(١٣) المرجع نفسه، ص ص ٢١٠-٢٣٧.

(١٤) انظر بالنسبة للسجون المصرية كتاب محمود السعدنى: تمام يافنلم، كتاب اليوم، دار

أخبار اليوم، أغسطس ١٩٩٧، حيث يقول: «ليس فى العالم كله فساد كالفساد

الموجود فى السجن ... أغلب الحراس بلا ضمير، والسجن بالنسبة لهم هو مكان للربح

والتزلاء آخر غلب وآخر ضياع. والسجن نفسه ليس مؤسسة عقابية فى الحقيقة،

ولكنه هيئة عامة لارتكاب أخطر أنواع الجريمة وأحقر ألوان التعذيب...» ص ٦-٧.

(١٥) ديديه إريون، المرجع المذكور، ص ص ٢٣٨-٢٨٨.

(١٦) المرجع نفسه، ص ص ٢٩٨-٣٥٠.

(١٧) إن أزمة العلوم، كما يتصورها "هوسرل"، هى فى انشقاق المجال العلمى الغربى إلى شقين

منفصلين منذ الثورة المنهجية التى أحدثها "جاليليو" والتى أضفى فيها الطابع الكمى على

علم الفيزياء. وتأتى الأزمة من محاولة البعض تطبيق المنهج الطبيعى الكمى على الظواهر

النفسية، ومن ثم موضوعتها وتفتيتها، ومحاولة البعض الآخر اعتبار الظواهر النفسية أو

الشعورية تصورات ذاتية محضة تكاد تكون منفصلة عن العالم الموضوعى (هيوم وبركلى

مثلاً). أضف إلى ذلك أن استبعاد العلم الوضعى لأية رؤية فلسفية عامة قد أدى إلى

تفتت العلوم إلى مجالات بالغة التخصص ولا رابط لها. ومن هنا كانت ضرورة ابتكار

"الفينومينولوجيا" الهوسرلية لتأسيس العلوم من وجهة نظر الذات والموضوع فى صورة

غاية (Telos) متكاملة ومتنامية للرجوس الغربى. انظر:

Edmund Husserl, La Crise des Sciences Européenne et la
Phénoménologie Transcendantale. Paris, Gallimard, 1976
(traduction de S'allemand). pp. 69-87.

^(١٨) يأخذ علم الجنس حاليًا، في البلاد المتقدمة وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، مكانة الصدارة على إثر إغدار التحليل النفسي وفقدانه لمصداقيته. ويُعنى علم الجنس أساسًا بمسائل الصحة الجنسية وعلى رأسها مسألة "الإشباع" معالجة البرود الجنسي وتحقيق الوفاق بين الزوجين، كما يعنى بتغيير بعض السلوكيات "غير المقبولة" عن طريق تخفيف التوتر والقلق أو عكس حركة هذا التوتر بواسطة "التفجير" لاكتساب سلوكيات جديدة. انظر هذه الدراسة:

André Béjin, Crépuscule des Psychanalystes, Matin des Sexologues", Communications, n° 35, Seuil, 1982, pp. 159-177.

٣ - خطاب الجنون أو الأ عقل عند ديڤرو

٣ - خطاب الجنون

أو الالعقل عند ديدرو

كيف يكون للجنون خطاب، إذا كان الجنون هو نقيض العقل، أو هو - كما يقول فوكو بحق - غياب الإبداع؟ إن الجنون، فى حقيقة الأمر، وإن كان يبدو خرقاً لكل نظام وخروجاً عن كل مألوف، لابد أن يخضع، لنظام يحدده، فى الواقع، العقل السوى، أى العقل الذى يخضع من الناحية العلاجية والإجرائية لسلطة الطبيب والمشرع، وإن كان فى حقيقته انعكاساً لقيم جمعية عامة تحدد المبادئ والمعايير التى تحكم هذه السلطة.

من ثم كان للجنون، بمعناه الواسع الذى سنراه، وليس فى حدود المرض العقلى الذى ينتهى فى غياهبه كل خلق وإبداع، سمات إيجابية كبرى يناط بالأدب الرفيع والفكر الفذ استغلالها واستثمارها فى

إنتاج ضروب من المعارف والحقائق الباهرة، التى لا تدركها أو تفتن إليها العقول الأليفة والسوية. وليس من شك فى أن أهم هذه السمات هو إبراز الجانب النسبى فى كل مفهوم للنظام وإلقاء الضوء على الميكانيزمات الاجتماعية والثقافية والتاريخية التى تحكم هذا النظام، وتربطه - داخل شبكة علاقات القوى التى تنعقد حولها بنية النظام الاجتماعى - بالنسق المعرفى والعلمى.

ليس من الغريب إذن فى أن يكون هناك - كما ذهب فوكو - للجنون تاريخ^(١)، وفى أن تكون الرؤيا العلاجية بكل أبعادها التقويمية والأخلاقية والاجتماعية جزءاً لا يتجزأ من هذا التاريخ. ومن هنا تتحدد كذلك خصوصية الجنون: فهو من بين الأمراض جميعاً المرض الذى لا ترسم خطوطه أو تبرز ملامحه فى لقاء خالص مع الطبيعة بقدر ما يؤكد هويته ويكتسب حقه فى الوجود داخل إطار ثقافى.^(٢)

ولا شك أن ارتباط ظاهرة الجنون بثقافة المجتمع بما فى ذلك مؤسساته وتنظيماته وقيمه وغاياته، وإن كان ذلك لا يتم - فى نظر جاك لاكان - إلا من خلال تصور لغوى يقوم وينمو داخل الأسرة التى تشكل اللبنة الأولى للشخصية، لا ينفى الجانب الموضوعى: وهو المدخل العلمى الذى يلجأ إليه الطب النفسى لتحديد المرض العقلى من الظاهر. ونحن بإقرارنا لهذا الجانب الموضوعى لا يسعنا إلا أن نبرز الطبيعة الخاصة لهذه الموضوعية فهى، فى الواقع، نتاج التطور الفكرى والعلمى فى بداية

القرن التاسع عشر، كما أنها قد تعرضت لهجوم شديد من قبل الحركة المناهضة للطب النفسى.

غير أنه يجب ألا يفهم مما سبق أن المعالجة المرضوعية لظاهرة الجنون، سواء أكنت تنظر إليها نظرة موضوعية عامة أو تعالجها معالجة الأمراض العضوية من منظور أحادى، تتم عزلها عن بيئتها ومحيطها، فالمرض العقلى يتميز عن الأمراض الأخرى جميعاً بأنه يحتفظ بخصوصيته: وهى أن أعراضه مرآة، إلى حد ما، لآثار البيئة التى يعيش فيها المريض. ومحمل النظرة الموضوعية إلى المرض العقلى هو أنه ظاهرة ارتدادية فى تكوين الشخصية يمكن إدارتها من خلال فرعين كبيرين: فرع الأمراض العصائية (nevroses) وفرع الأمراض الذهانية (psychoses) وغالباً ما يركز العصاب على تدهور قطاع واحد من قطاعات الشخصية، كما أنه يرتبط إلى حد كبير باضطرابات مرحلة الطفولة. أما الذهان فيمس بمحمل الشخصية، وهو عبارة عن انفصام حاد بين الأنا والواقع كثيراً ما يؤدي إلى سيطرة الغرائز أو الدفعاات الأولية على الأنا، وإعادة صياغة الواقع بطريقة خيالية تتلاءم مع هذه الدفعاات.^(٣)

إن ارتباط الجنون إذن ببيئة المريض ومجتمعه يبرز لنا الطابع النسبى الذى يتسم به تصور هذا "المرض" من مجتمع إلى آخر، ومن حقبة تاريخية إلى أخرى. فالجنون كان قديماً يمثل تسلط قوة خارجية قاهرة على إرادة الإنسان، أو تحسيدا للشيطان فى شخص المكروب، أما ابتداءً

من عصر النهضة الأوروبية، فهو ينأى رويداً رويداً عن امتلاك الجسد، ويحاول السيطرة على عقل الإنسان ولبه هادفاً سلبه نعمتى الحرية والإرادة. ثم نراه يصبح، خلال القرن الثامن عشر، ضرباً من الجهل والخطأ اللذين يحرمان الإنسان من نور العقل ويجولان بينه وبين السلوك السوى، وهذا هو التصور الذى انتهى إلى حرمان المريض من حريته المدنية وحقوقه الشرعية.

إلا أن الطب النفسى هو الذى انتهى إلى قرار عزل المريض العقلى، الأمر الذى سيؤدى إلى قيام علاقة بالغة الخطورة - نظراً لقيامها على الاغتراب التام - بين المريض ونظام العزل فيما يسمى بالمصححة أو مستشفى الأمراض العقلية. ذلك أن المريض سرعان ما سيقوم فى إطار نظام العزل بأداء الدور الذى حدده له المجتمع، إذ أنه خلال تموضعه وضياح حريته على يد الطبيب المعالج يسارع إلى التوفيق بين سلوكه وبين الصورة التى يرسمها له طبيبه المشخص ويثبت ملاحظاتها مرضوه وزملاؤه. بعبارة أخرى، إنه يصبح التجسيد الحى لـ "الانحراف" فى مواجهة الطبيب الممثل لإرادة "الضبط الاجتماعى".^(٤)

إن هذه العلاقة التى ترسم بين المريض العقلى والمجتمع تصبح أكثر تحديداً فى ظل المجتمع الصناعى، وذلك فى صورة خلل مبدد للإنتاج ولطاقات العمل الخلاق؛ من ثم يكون العلاج ضرباً من التطويع القسرى المؤلم للمريض على العودة إلى نظام العمل. أضف إلى ذلك أن

بعض علماء الاجتماع ينظرون إلى المريض العقلى على أنه إنسان يعانى من خلل فى عملية الاتصال، إذ أن الرموز اللغوية -وهى اجتماعية فى المقام الأول- سرعان ما تفقد دلالتها بالنسبة له، الأمر الذى يضى على موقف المريض طابعاً درامياً بالغ التأثير، خاصة حينما يلجأ مضطراً إلى الكلمات للتعبير عن نفسه فلا تسعفه، وحينما يعييه العجز عن الإفصاح فيلجأ متخبطاً إلى الإشارات والحركات، وأخيراً حينما يتتابه اليأس فيلتزم الصمت العميق.

إن موقف العلم، سواء أكان ذلك فى صورة علم الاجتماع أو التحليل النفسى أو الطب النفسى، وذلك حتى فترة الثلاثينيات من القرن العشرين، لا يتعدى موقف الشارح والمفسر والباحث عن العلل والبواعث من ظاهرة الجنون؛ ولا شك أن ذلك الموقف هو أقرب الطرق وأسهلها لطمس "جوهر" المرض العقلى، وحرمانه من الظهور على حقيقته. وليس من شك فى أن هذا الموقف القهرى كان الدافع القوى لبروز حركة ثورية عارمة تريد أن ترد إلى المريض حقه فى التعبير عن نفسه وفى الاحتجاج على المجتمع الذى يعيش فيه، والذى يحاول الطبيب النفسى أن يرده إليه صاغراً مرغماً. وكان الأدب والفلسفة والفن -من غير شك- أروع مجالات هذه الثورة، الأمر الذى انتهى بقيام حركة علمية معارضة تعمل على تقويض الطب النفسى الوضعى من داخله،

ولقد برزت هذه الحركة بصورة قوية وفعالة خاصة فى كتابات المفكرين الإنجليزين كوبر ولينج، والإيطالى بساجليا.^(٥)

أما الرؤية الأدبية أو الفنية للجنون فتختلف اختلافاً جذرياً عن الرؤية العلمية الموضوعية إذ بينما تقوم هذه الأخيرة على تحديد "المرض" من الظاهر، وعلى رفض الجنون كنوع من الانحراف غير المقبول، الأمر الذى يفترض أن القيم الاجتماعية السائدة هى المقياس السوى الأوحده، تقوم الرؤية الأولى على الذاتية الخالصة وعلى محاولة تفهم دوافع الجنون وبواعثه، وفى حالات قصوى، على تقمص شخصية "الجنون" أو اللجوء إلى تجارب غير عادية يقصد بها اختراق حدود العقل المألوف وكسر قوانينه وأعرافه المتوارثة.

ولقد عرف الأدب القديم، وخاصة الأدب اليونانى، ضرباً من هذه العلاقات اللاعقلانية التى تربط بين عمليتى الخلق الفنى والإلهام فى صورة موجة من الدفوعات الجياشة التى يهتز لها الكون بأسره ولا يستقر للنفس المبدعة فيها قرار إلا بعد وصولها إلى حالة من النشوة الغامرة، أو كان هذا، على الأقل، ما تصوره لنا الرؤية الديونيزية. كما أن الأدب العربى القديم قد ربط بدوره بين عملية الإلهام الشعرى وبين قوى الإبداع الخارقة التى كانت تتمثل فى صورة شياطين الشعراء. غير أن هذه العلاقة لم تتأكد، بالرغم من ذلك، ولم تبلغ عمقها المأسوى إلا من

خلال كتابات بعض المفكرين والأدباء الغربيين المحدثين الذين استطاعوا أن يرتفعوا بمعاناتهم، عبر كتاباتهم، إلى مستويات تعبيرية حارقة.

ولربما كان نيتشة على رأس هؤلاء المفكرين الذين انتهى بهم المطاف إلى الردى فى هاوية الجنون. لقد كان نيتشة يؤمن بأن «اليقين الحقيقى هو طريق المرء إلى الجنون»، كما كان يعتقد بأن «المرء لا يكتسب هويته الحقيقية إلا بفقدانه لهويته المحدودة». من ثم كان "الجنون" بالنسبة له إحدى المتطلبات الضرورية لإحداث التحول الجذرى فى وجدان الفنان وإطلاق طاقات الإبداع والخلق الكامنة فيه. وكان بريتون، مؤسس الحركة السريالية، يؤمن بأن الجنون يمثل الوضع الطبيعى بالنسبة للإنسان. إلا أن الوصول إلى هذا الوضع يفترض سلوك طرق متعرجة وملتوية نظراً لعملية "التشويه" التى أضفاها العلم والمجتمع على الطبيعة. كان هذا الكاتب يذهب إلى أن الجنون ضرب من الهوس الذى يُفتق طاقات الإنسان ويُضفى على حياته معانى تتجاوزها فى الزمان والمكان إلى درجة تجعلها تلحق بعالم المستحيل؛ إلا أن الإنسان، فى قرارة نفسه، لم يخلق قوياً إلى درجة كافية حتى يتحمل صدمة الجنون وجبروته، فهذا الأخير قوة طاغية عاتية لا طاقة للكائن المحدود الفانى على ضبطها والسيطرة عليها أو استخدامها بطريقة مثمرة فى حياته العادية. وليس من شك فى أن أكبر دليل على ذلك هو تصدع حياة كثير من الفنانين

والأدباء فى النهاية أمام تجربة الجنون مثل أرتو وفيرلين ولتريامون ونيتشة وفان جوخ.^(٦)

إن تجربة الجنون تجربة قاسية ومريرة، إلا أن بعض النوابغ من الفنانين والكتاب استطاعوا أن يحولوها إلى طاقة إبداعية هائلة، وإن كان ذلك على حساب حياتهم ونظير معاناة وآلام لا يقبل لشخص عادى بها. وليس من شك فى أن قدرة هؤلاء المبدعين على تجاوز محتهم وإظهار الجوانب "الخفية" من العقل، هذه الجوانب التى لا يستطيع العقل السوى -من غير شك- أن ينفذ إليها بوسائله التقليدية المألوفة، نقول إن هذه القدرة قد أبرزت أهمية الحرية التى يجب أن تتوفر للمريض العقلى حتى يحقق ذاته، ويتضوع بعيداً عن جو العزلة والاغتراب الذى فرضته عليه ممارسات الطب النفسى، الشبيهة بطقوس السجن، منذ القرن الماضى. من ثم كانت أهمية الحركة المعارضة للطب النفسى (antipsychiatry)، وهى الحركة التى نشأت فى إنجلترا على يدى لانج (Laing) وكوبز (Cooper)، وذاع صيتها فى فرنسا منذ السبعينات بفضل كتاب مانونى^(٧) التى تقول لنا فى تعريف "معارضة" الطب النفسى:

«إن ما يبحث عنه الطب النفسى-المضاد (لانج) هو الحفاظ، كما لو أن الأمر يتعلق بتحليل غير معلن صراحة، على نوع من المعرفة الذى لا يتواجد مسبقاً قط وإنما يتكشف من خلال لغة "المريض"

فى صورة حدث متكرر يبرز من ثنايا فجوات الخطاب. إنه يسعى إلى إقرار الظروف التى تسمح لمنطوق أن يتشكل من غير ضغوط. وليس من شك فى أن العقبات القائمة أمام بروز اللامعنى الدال سوف تبتنى حينئذ فى قلب مجال الرغبة والاستمتاع. إن ما يجابهه المريض هو البحث عن دال مضيع هناك حيث تكون الرغبة هى بيت القصيد»^(٨).

وتوضح لنا هذه الطيبة أن «الطب النفسى التقليدى غالباً ما يتأرجح بين وجهة نظر طبية يصعب تحديدها إذ أن الحالات الخاصة بالطب النفسى لم تسم "أمراضاً عقلية" إلا على سبيل المجاز، ووجهة نظر تربوية غير مريحة بالنسبة للمعالج نظراً لأنها تحول العلاقة بينه وبين المريض إلى ما يشبه العلاقة التأديبية التى تربط المربى بالطفل، كما أن وضع المريض بالمصحة وما يصاحبه من طلبات وتظلمات سرعان ما يتحول إلى ما يشبه وضع السجناء»^(٩).

أضف إلى ذلك أن «حديث المريض إلى الطبيب ليس حديثاً مباشراً خالصاً بقدر ما هو حديث متأثر بحديث آخر أتاه عن طريق الغير بعد أن تناقلته الأطراف الأخرى فى المصحة، ذلك أن لغة المريض سرعان ما تشكلها لغة المؤسسة التى تقوم على مبدأ العزل والتى لا تخلو من صراعات واحتكاكات بين المعالجين والمرضى أنفسهم من جهة أخرى»^(١٠).

ولما كانت هذه العوامل التى تحيط بالمريض غالباً ما تتضافر على محور شخصيته، فإنه سرعان ما يهرب من المجهود الضرورى لتحديد ذاته واكتشاف هويته فى خضم الدفعات المتناقضة وشحنات القلق، التى تنتابه، إلى معايير التشخيص الموضوعى الذى يحدد له معاملة الطبيب المعالج. من ثم فإن الطبيب المسئول عن "تموضع" المريض وتصنيف علته فى إطار مرضى محدد، يخاطر -لاشك- بالقضاء على إنسانيته وبالحجر على حريته فى الحديث والإفصاح عما يجيش بداخله من هواجس ونزعات. لا غرابة إذن فى أن ينادى كاتب شهير مثل "أنطونان أرتو"، وهو فى أوج محنته بحق المريض فى "الهذيان"، هذا الهذيان الذى تحاول المؤسسة الطبية إخماده، والذى يفجر، فى نظر الكاتب، طاقات كشفية عالية تفضح "المجتمع" و"مؤسساته القهرية".^(١١)

ومن ثم، كان لزاماً على الطبيب أن يتخلى عن الطريقة الظاهرية التى يقوم عليها التشخيص الموضوعى حتى يرد إلى المريض اعتباره الذاتى كإنسان له حق الكلام والتعبير عن نفسه. وعلى هذا النحو، يتمكن الطبيب من الوصول إلى النقطة الحاسمة التى تم عندها انفصام ذات المريض بين الحقيقة والوهم، وهى النقطة التى لا يمكن الوصول إليها، فى نظر الكاتبة، إلا بإعادة بناء ما تسميه "منطق اللاشعور" عند المريض، وبدراسة عوامل القعالية فى مجال الرغبة.^(١٢)

هكذا يتضح لنا أن الجنون هو أساساً أزمة تتاب الإنسان فى أهم مكونات شخصيته ألا وهى هويته، وهى أزمة غالباً ما تنتج عن صدام بين رغبات الإنسان وسجيته وبين "حقيقة" المجتمع الذى يعيش فيه. ولما كانت هذه الحقيقة تشكل، فى أغلب الأحيان، الجانب غير المعلن فى حياة المجتمعات نظراً لارتباط تنظيماتها الاجتماعية بعلاقات القوى الكامنة فيها، فإن هذه المجتمعات سرعان ما تأخذ حذرهما من "المجانين" لما يمثلونه من قوة نقدية فاضحة ومدمرة، وذلك عادة بتحديد الأدوار ورسم النماذج الممكنة ضمناً لظاهرة الجنون. تقول لنا مانونى فى هذا الصدد:

«يجب أن ندرك أن المجتمع قد تصور مقدماً، وبطرق عدة ودائمة، أماكن لمجانينه، كما قدم لهم دائماً نماذج للجنون يمكنهم الاتحاد بها لإرضائه، على فرض أن ذلك جزء من المؤسسات التى يحمى بها نفسه ضد لارعيه»^(١٣).

وإذا كان العلم قد تكفل بتخطيط هذه الأدوار ورسم حدودها وتصنيفها وتعليلها، فلأنما هو قد قام بواجبه المناط به لحماية المجتمع ودرء الأخطار التى تتهدده من قبل هذه القوى اللاعقلية القارضة والمتمثلة فى شخوص "المجانين". وإذا كان الجنون يبدأ، فى واقع الأمر، حيث ينتهى العقل -والعقل ليس إلا نتاج يبتته- فإن الأدب يبدأ كذلك، فى عرف الأدبية المعاصرة، حيث ينتهى الخطاب العلمى أو الواقعى. من هنا كان

ارتباط الأدب بالجنون^(١٤) ارتباطاً وثيقاً بالضرورة، فكلاهما يقوم على الخيال ويعمل على كشف الوهم فى قلب الواقع وإبراز هوية الإنسان.

يا ترى أليس الحوار الغريب -وهنا يبدأ حكم القيمة- الذى قدمه لنا ديدرو، كاتب الموسوعة الفلسفية الفرنسية فى القرن الثامن عشر، هذا الحوار الذى دار بينه وبين أحد صعاليك المجتمع الفرنسى حينذاك^(١٥)، خير دليل على ذلك؟ فما هو هذا النص؟ وما هى خصائصه وسماته "الغريبة" تلك؟

كان هذا النص، فى البداية، ضمن مجموعة المخطوطات التى باعها الكاتب مع مجلدات مكتبته الثلاثة آلاف -نظراً لحاجته- إلى إمبراطورة روسيا الشهيرة "كاترين الثانية". إلا أنه من حسن الحظ، كانت هناك نسخ أخرى من هذا المخطوط: نسخة بين يدي السيدة دى فاندول (Mme de Vandeuil)، ونسخة فى حوزة تلميذ ديدرو المفضل نيجون (Naigeon).

ومع ذلك، فإن نيجون لم ينشر هذا المخطوط ضمن مجموعة المؤلفات الكاملة التى نشرها لأستاذه، وكان على المخطوط أن يظهر إلى العيان عن طريق الكاتب والمفكر الألمانى الشهير جوته، الذى كان قد حصل عليه عن طريق صديقه شيللر، الذى ابتاعه -كما يبدو- من ضابط كبير فى الجيش الروسى.

مهما يكن الأمر، لقد أعجب جوته بهذا النص كما إعجاب، فقام بترجمته إلى الألمانية عام ١٨٢١ تحت اسم "حوار ليدرو". ولقد ظل هذا النص، المحرف للأسف، هو النص الوحيد المعروف، إلى أن يشاء الحظ أن يقع الباحث المنقب بريار (Brière) على النسخة الأصلية له، وهى نسخة السيدة دى فاندول، فينشره مع مجموعة الأعمال الكاملة المثبتة للكاتب، وذلك فى الفترة بين ١٨٢١ و ١٨٢٣.^(١٦)

والغريب فى الأمر، أن هذا الحوار قد عرف، دوناً عن أعمال الكاتب الأخرى التى لا يقل بعضها أهمية عنه، شهرة غير عادية على جميع المستويات، وربما يرجع ذلك إلى أن طابعه الهجومى اللاذع وروح التهكم المرححة التى تهيمن عليه، والنقد الصارخ الذى يوجهه إلى الطبقات الاجتماعية الجديدة المتسلقة قد جعلته من بين الهجائيات (Satires) الشعبية الذائعة الصيت، كما أنه قد أثار، فى الوقت نفسه، إعجاب كبار الكتاب والفلاسفة فى العالم وعلى رأسهم جوتة وهيغل فى ألمانيا، وستاندال وهيغو فى فرنسا.

وليس من شك فى أن الذى يعنينا فى بحثنا هذا، الذى نكرسه لموضوع "الجنون" فى الأدب الفرنسى، ليس تصنيف هذا الحوار ولا تحديد ماهية النوع الأدبى الذى ينتمى إليه، فلقد سال حير كثير، كما يقول الفرنسيون، لمعرفة إذا كان نص ديدرو العجيب الفريد هذا ضرباً من الحوار الفلسفى على شاكلة الحوار الفلسفى عند اليونان، فيقوم

بالتالى على توليد القضايا الفكرية والفلسفية العامة، أم هو يمثل بالأحرى حواراً واقعياً مليئاً بالحياة الجياشة على طريقة ديدزو نفسه، وهى الطريقة التى تتميز بالتلقائية الوثابة المتحركة التى يتجاوز فيها الكاتب عالم الأفكار المجردة والمفاهيم الميتافيزيقية المطلقة إلى زخم القضايا الإنسانية والاجتماعية الأليفة وشبه اليومية، أم هو، فى حقيقة الأمر، لون من الهجاء يشبه ذلك الهجاء الذى كان يمارسه الكتاب اللاتين أمثال هوراس وبترون ومن هذا حذوهم مثل إيرازم أو رابليه.

نحن فى الواقع لا ننكر شرعية هذه التساؤلات بالنسبة لدارسى الأدب ومؤرخيه، إلا أننا لا نعنى بالموضوعات التى ترتبط ارتباطاً مباشراً بما يمكن أن نسميه "المضمون الفعلى" أو الملحن للنص، ولا نعنى كذلك بمطابقته للواقع التاريخي المباشر، إذ شتان ما بين واقع النص وحقيقته. لذلك كله، لا يهمننا كثيراً كل هذه الأبحاث المضنية التى قام بها أصحابها للبحث عن أصل شخصية "جان-فرانسوا رامو" ابن أخ الموسيقى الفرنسى السىء الحظ "جان-فيليب رامو"، كما لا يهمننا إذا كان هذا الشخص الذى عثر بعض الباحثين على اسمه فى إحدى سجلات السجون القديمة، يطابق فى سماته وسلوكه الشخصية التى قدمها لنا كاتب الموسوعة، فى الواقع، لا نهتم إلا بهذه الشخصية التى رسمتها لنا حروف الكاتب، ولا يعنيننا -وهذا بالطبع إحدى الاختيارات الممكنة- إلا مدى مطابقتها لحقيقة العصر الذى عاش فيه الكاتب،

ومدى إبرازها للرؤية الفكرية والأيدولوجية لهذا الأخير، وأخيراً مدى مطابقة هذه الرؤية لتطور القيم خلال فترة انتشار فلسفة التنوير.

إننا بصورة أدق نعنئ بقراءة نص ديدرو قراءة ذات طابع فلسفى يلتقى من خلالها التفسير الهيجلى لظاهرة اغتراب القيم فى عالم المدنية "الشكلية" وتفسير ميشيل فوكو لعودة ظاهرة الجنون، أو بالأحرى "اللاعقل" (dérailson) إلى الأدب على أيدى ديدرو بعد أن كان المنهج الديكارتى قد حكم على جميع الظواهر اللاعقلية بالصمت، وبالتالى لم يسمح لظاهرة الجنون بالتعبير عن نفسها إلا من خلال القنوات الشرعية التى سوف يسلكها العقل للحكم عليها من الظاهر. بعبارة أخرى، يمكن القول، فى إثر فوكو، بأن صوت الجنون سوف يخبر مع ديكارت ليتحدث عنه العقل حديثاً علمياً وموضوعياً، الأمر الذى يؤدى من خلال عزل المجانين وسلبهم حريتهم فى الحركة والتعبير عن أنفسهم إلى نشأة الطب النفسى الوضعى متزامناً مع نشأة الفلسفة الوضعية بعامة. كما يمكن القول، من جهة أخرى، بأن الجنون، ولكن فى صورة اللاعقل هذه المرة، يعود إلى الظهور من جديد فى كتابات ديدرو ليعت نوعاً أدبياً وفلسفياً قلباً كان قد عاجله من قبل بعض فلاسفة الإنسانيات مثل إيرازم.^(١٧)

لنعد إلى الوراء قليلاً، حتى نرى -مع فوكو- كيف تم هذا "التطور" المتعرج الخطوط وما هى خلفياته وأبعاده وآثاره.

يذهب فوكو فى تاريخه للجنون خلال العصر الكلاسيكى، إلى أن ظاهرة الجنون قد عرفت نوعاً من التاريخ المضطرب، إلا أنها لم تبرز فى خصوصيتها قبل صدور قرار الملك لويس الرابع عشر عام ١٦٥٦ بعزل المجانين مع بقية "النفائيات" الاجتماعية من شحاذين ودجالين ومنحرفين خلف أسوار ما أطلق عليه حينئذ اسم المستشفى العام، والذى كان أقرب إلى الملجأ أو الإصلاحية منه إلى المستشفى بالمعنى المألوف للكلمة.

لقد كانت ظاهرة الجنون تمثل فى أواخر العصر الوسيط ضرباً من الهوس أو الهستيريا الجماعية الرهيبة، التى ورثت فى حقيقة الأمر هالة الرعب والهلع المروع للذين صاحبوا فى وجدان الشعب الفرنسى حركة انتشار الأوبئة الفتاكة كالبرص والطاعون. ولقد شهدت كذلك نهايات القرن الخامس عشر، نتيجة للآثار المدمرة لحرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا، ألواناً أخرى من مظاهر التعبير الجماعى عن الخوف والقلق، أهمها - لا شك - ظاهرة "رقصة الموتى" (La Danse Macabre) التى كانت تقام بطريقة جماعية تلقائية بين القبور. ولقد عبر الفنانون، من جهة، عن هذه الحالة العامة من الفزع والهلع، وعلى رأسهم "جيروم بوش" المشهور بلوحته المخيرة "سفينة المجانين" حيث يصور لنا "شحنة" من المعتوهين وهم يتقلدون على حافة المعمررة بين الجداول والأنهار على

غير هدى، مزاجاً فى براعة لا نظير لها بين عنصر انسيولة المائية أى رمز التغير وبين ضياع العقل الإنسانى وتخطئه فى الآفاق سائجة.

إلا أن انبثاق المعارف العقلانية، وسيطرة الإرادة المتصاعدة للإنسان على عقله وهواجسه ودوافعه الغريزية العمياء إبان عصر النهضة سرعان ما سمح لبعض كبار مفكرى الإنسانيات. على شاكلة إيرازم الهولندى من تجاوز مشاعر الخوف الأولية التى كان يحس بها رجل الشعب الجاهل تجاه الظواهر الطبيعية أو الجماعية ويعجز عن تفسيرها تفسيراً عقلياً أو منطقياً. من ثم رأينا كاتباً مثل إيرازم ينشر عام ١٥١١ كتاباً نقدياً ساخراً يهزأ فيه من أخلاقيات وسخافات معاصريه عنوانه: "مدح الجنون". إلا أن هذا الجنون، الذى هو أقرب إلى شطط العقل وحماسة الإنسان، لا يشبه فى كثير أو قليل الجنون المأسوى الذى كان يستحوذ على ضمير الشعوب الأوربية ووجدانها فى أواخر العصور الوسطى. من ثم يطلق فوكو على هذا النوع من جنون اسم "التصور" أو "المفهوم النقدى" للجنون.

على هذا النحو، يمكن القول بأن العقل المفكر قد استطاع، سواء عند إيرازم أو عند الكاتب الفرنسى المتشكك "مونتاني" (Montaigne) أن يسيطر على القوى اللاعقلانية؛ أو هو، فى الواقع، استطاع التحصن - لدى المثقفين على الأقل - من حالة الرعب والهلع أمام الكوارث والأحداث الجسام التى لا يفهم لها سبب ظاهر. ولربما كانت

السخرية والفكاهة - خاصة عند كاتب مثل رابليه (Rabelais) - وروح التهكم عند كبار مفكرى العصر، لونا من ألوان الدفاع عن النفس يرام به الحفاظ على التوازن العقلى والمزاجى للإنسان.

ولقد أخذت هذه السيطرة العقلية تتزايد إلى أن وصلت إلى ذروتها، وهى لحظة الوعى بها، عند مؤسس العقلانية الحديثة "رينيه ديكارت" الذى استبعد تمامًا فى تأملاته الفلسفية لعام ١٦٤١ مبدأ قدرة الشيطان الخبيث أو أية قوة أخرى كالحلم أو الجنون على تشكيكه فى سلامة فكره وعقله. من ثم، فإذا كان الشك جائزًا، فذلك لأنه عمل من أعمال العقل المشروعة وطريقة من طرائقه المقبولة للتأكد من وجوده كذات مفكرة، وللتثبت من الحقيقة، أما الجنون فيمثل قوة حرقاء مناقضة للعقل تمامًا، وبالتالى تتعارض تعارضًا جذريًا مع عملية التفكير نفسها. من هنا استطاع ديكارت أن يزيح تصور "الجنون" عن طريقه، وأن يحيله إلى شىء أشبه باللاوجود الفكرى. فلنستمع إليه فى تأمله الأول:

«كيف يمكننى أن أنكر هذه الأيدى، وهذا الجسد المائل لى ملكى؟ اللهم إلا إذا كنت أقارن نفسى بهؤلاء المعتوهين الذين احتل عقلمهم وخيبت عليهم أبخرة المرارة السوداء إلى الدرجة التى يؤكدون فيها بثبات أنهم ملوك، بينما هم جد فقراء، وأنهم متشحون بالذهب والحرير، بينما هم عراة تمامًا، أو إلى أى درجة أنهم يتصورون أجسامهم

وكانها مصنوعة من جرات أو من زجاج. ولكن ما الخطب...! لا جرم أنهم مجانين، ولن أكون أقل جنوناً منهم إذا سرت على منوالهم»^(١٨).

من ثم، فإن ديكارت حينما ينحى "الجنون" جانباً، فإنما هو يقضى على كل إمكانية لاستخدامه سواء فى مجال الفلسفة أو الأدب وذلك باستبعاد أسلوب التهكم والمداعبة الساخرة، التى كان يصطنعها كتاب عصر النهضة، من كل ألوان الفكر الجاد. كما نلاحظ على اتجاه ديكارت الفكرى أنه حكم على كل ضروب الجنون والعواطف عامة بالاضطراب والعجز عن بلوغ أى شكل من أشكال المعرفة اليقينية، أو أى مستوى من مستويات الحقيقة، التى تصبح، من الآن فصاعداً، حكرًا على العقل الخالص. وليس من شك فى أن ديكارت كان يسعى بمنحاه هذا إلى تخلص العقل من كل شوائبه القديمة التى عقلت به منذ انتشار الفكر المدرسى خلال العصور الوسطى، وذلك بغرض تطهيره والارتقاء به إلى درجة الوضوح الرياضى الخالص، الأمر الذى يتيح للإنسان أن ينفذ إلى كنه الوجود، وأن يستشف قوانينه المنظمة.

مهما يكن الأمر، لقد قضى ديكارت على مفهوم الجنون، سواء منه الجانب المأسوى الذى شاع فى أواخر العصور الوسطى، أو الجانب النقدى الذى تألق فى أدب الإنسانيات، قضاءً تاماً وشاملاً، وذلك فى الوقت الذى يتفق ودخول المجانين إلى الملجأ مع غيرهم من السفهاء والفقراء والمتبوزين الذين كانوا يشكلون جماع الفئات السلبية المهيدة

لأمن المجتمع وسلامة المواطنين المنتجين الشرفاء. لقد دخل هؤلاء المحانين إلى عالم العزلة مع زمرة الداخلين، من غير أن تحدد هويتهم، أو ينتبه أحد إلى حالتهم الخاصة. وظل هؤلاء المساكين يتخبطون، على هذا النحو، فى ظلام الحبس قرنًا وبعض قرن إلى أن أخذ أمرهم ينكشف رويدًا رويدًا، خاصة بعد أن كثرت الشكوى منهم وتعددت التظلمات ضدهم من بقية المساكين الذين أخذوا يربأون بكرامتهم -باللسخرية- من معاشة هذه الفئة المضيفة، والتي يرون فيها خطرًا يهدد حياتهم.

على هامش هذه الأحداث، ولربما بعيدًا عنها كل البعد، تنبثق من حديد شخصية المعنوه فى عمل من أعمال ديدرو، الذى كان يبدو أنه شرع فى إعداده منذ عام ١٧٦١^(١٩)، وهى شخصية "جان-فرانسوا رامو" ابن أخ الموسيقار الفرنسى المعروف "جان-فيليب رامو"، الذى لم يكن يحظى بتقدير كاتب الموسوعة وأصدقائه المؤيدين للموسيقى الإيطالية. على كل حال، يصور لنا ديدرو، فى إحدى جلساته، عمقهى الريحانيس بباريس، مقدم هذه الشخصية الغريبة بقوله:

«بينما كنت جالسًا، فى عصر يوم من الأيام، انظر كثيرًا، وأتكلم قليلًا، وأنصت أقل ما يمكن الإنصات، اقترب منى شخص غريب الأطوار على شاكلة كثيرين غيره ممن لم يرض الله بهم على هذا البلد. لقد رأيته مزيجًا من السمو والانخطاط، ومن العقل والخلل، ولا أشك فى أن مفاهيم الشرف والدناءة قد اختلطت عليه اختلاطًا عجيبًا إلى درجة

أنه يظهر ما حبته الطبيعة من صفات حميدة من غير خيلاء، ويبدى ما نكبته به من رذائل من غير حياء»^(٢٠).

ويرى فوكو فى هذه الشخصية ملخصاً عجيباً للتاريخ، ملخصاً يمتد فى خط متعرج من "سفينة المجانين" فى القرن السادس عشر إلى أقوال نيتشة الأخيرة فى أواخر القرن التاسع عشر، ولربما أيضاً إلى صرخات أرتو فى النصف الأول من القرن العشرين. ويتبدى له أن مفهوم الجنون المأسوى واللاعقل يلتقيان مرة أخرى من خلالها ولكن إلى حين؛ إذ أن لقاءهما، هذه المرة، لقاء عابر، ولحظة من لحظات التاريخ التى تنبى بانفصالهما العاجل أو الآجل. يقول الكاتب:

«إن شخصية ابن أخ رامو، فى واقعها الإنسانى وفى هذه الحياة الهزيلة التى لا تقلت من المجهول إلا بفضل هذا الاسم، الذى ليس هو اسماً فعلياً وإنما ظل لظل؛ إن هذه الشخصية ليست، عبر ودون كل مستوى للحقيقة، إلا الهذيان المتمثل فى الوجود كوجود للواقع ولا وجوده. ونحن حينما نفكر أن مشروع ديكارت كان يقوم، على النقيض من ذلك، على قبول الشك بصفة مؤقتة تظهر الحقيقة فى واقع الفكرة الجلية، نرى جيداً أن النقطة الجاسمة فى لا-ديكارتية الفكر الحديث لا تبدأ بمناقشة الأفكار الفطرية أو بإدانة البرهان الأنطولوجى، وإنما مع نص "ابن أخ رامو"، وبالوجود الذى يُشير إليه هذا النص بطريقة معكوسة لا يمكن إدراكها إلا فى عصر هيلدرلين ونيتشة»^(٢١).

على هذا النحو، نرى أن هذه الشخصية الغريبة تجمع بين
ضربين من الجنوح الفكرى كانا قد اختلطتا تمامًا إلى درجة الاتحاد فى
نظر مفكرى العصر الكلاسيكى، أو قل إن هذين اللونين من "الجنون"
لم يكونا إلا شيئاً واحداً، شيئاً لم يخرج عن كونه نوعاً من الردة الحيوانية
عند الإنسان العاقل أو ضرباً من بلادة الحس وانكماش للإرادة لا يخلو
من ضعف وخنوع، أو لونا من ألوان سيطرة العواطف الهوجاء
والشهوات العمياء (انظر إلى المسرح الراسينى فى هذا المجال) على عقل
الإنسان وضميره بحيث تختلط عليه الأمور وتخيّم على بصيرته الظلمات،
فلا يستطيع تبين طريقه السوى أو تمييز الخطأ من الصواب. إلا أن دور
العزل، وهذا لم يقطن إليه أهل العصر، كانت قد تكفلت برعاية جانب
من جوانب هذا الهوس العقلى، تكفلته إلى درجة استطاعت فيها بين
ظلمات جدرانها وصدأ قضبانها أن تحدد معالمه، وتبرز سماته العامة
والخاصة، حتى إذا قام رواد الطب النفسى الرضعى مثل بنيل الفرنسى
(Pinel) وتوك الإنجليزى (Tuke) بتحرير شخص "الجنون" من رفقة
الشر أو السوء، كان قد تحول فعلاً إلى سجين من نوع خاص: سجين
الجدران الداخلية التى بثتها فى نفسه وحواسه وعقله عزلته الطويلة فى
قلب الملجأ، ومعاملته الدؤوب خلال قرن وبعض قرن على أنه حيوان
متبلد وكريه. إن هذا الجانب، الذى رعاه الملجأ وتعهده بعنايته، والذى

سوف تتعده بعد ذلك بعطفها واهتمامها مصحة الأمراض العقلية، هو ما سيعرفه العالم الحديث باسم المرض العقلي.

أما الجانب الآخر، الذى لم يفتن إليه الطب النفسى وما كان ليفتن إليه، لأنه لا يبرز إلا استثناءً ولا يشع إلا برقًا خاطفًا وميضًا متقطعًا. وكيف يفتن إلى ظاهرة لم تتحول إلى مرض نهائى إلا فى طورها الأخير، وإلى ظاهرة فريدة يجتمع فيها الاضطراب العقلي بالإبداع الفنى أو الأدبى إلى درجة الاختلاط فيما بينهما، ولكنهما فى الواقع لا يختلطان، وإلى درجة كان يظن فيها الرومانسيون، شعراء الليل والتصوف والأحلام، أن العبقرية الحققة لا يمكنها أن تخلو من قدر معين من الجنون. إن هذا اللون الأخير من الجنون، الذى يملو لميشيل فوكو تسميته: اللا-عقل، درب من الدروب المتوهجة أو إشعاع خاص من الإشعاعات الكاشفة لأغوار النفس والوجود^(٢٢) الذى أتيح لبعض العبقریات الفذة المتوقدة وبعض النفوس البالغة الشفافية أن تحترق به أو تكتوى بلهبه حتى تضىء لغيرها.

بصدد هذه التجربة الأخيرة "للجنون"، يقول فوكو:

«لقد ظلت التجربة اللاعقلية هذه إلى حد ما فى الظلام، واستمرت فى صمت منذ مجئ ابن أخ رامو وحتى ظهور ريمون روسل وأنطونان أرتو. ونحن إذ نعمل على إظهار هذه التجربة علينا، فى الوقت نفسه، أن نحررها من سيطرة المفاهيم الباثولوجية التى طمستها.

إذ أن العودة إلى الطبيعة المباشرة فى قصائد هيلدرلين الأخيرة، وإضفاء طابع القدسية على العالم المحسوس عند نرفال أمران لا يتسنى لهما، إذا حاولنا فهمهما على ضوء تصور إيجابى للجنون، إلا أن يقدمنا لنا معنى مشوهاً وسطحياً. إننا يجب أن نستخلص معناهما الحقيقى من اللحظة اللا-عقلية نفسها التى تواجدت فيها، فمن الواضح أنه لا يمكننا فهم حركة التحول الشعرى والنفسى لدى الشاعرين إلا انطلاقاً من تجربة اللاعقل التى كانت بمثابة الشرط المتعين لإمكانية هذا التحول. إن ظاهرتى التحول عند الشاعرين لا ترتبطان ارتباط علة بمعلول، ولا تتطوران عن طريق التكامل أو التعارض. إنهما ترتكزان على الأساس نفسه، أساس التناقض العقلى الغائر، الذى أبرزت تجربة ابن أخ رامو احتواءه سواء بسواء للسكر الحسية وفتنة الطبيعة المباشرة بالإضافة إلى هذه السخرية المريرة المضنية التى تنبئ بعزلة ووحداية الهذيان. ولاشك أن ذلك لا ينتمى إلى طبيعة الجنون، وإنما إلى ماهية اللاعقل. وإذا كانت هذه الماهية قد استطاعت أن تتطور فى الخفاء، فذلك ليس لكونها خفية فحسب، وإنما لضيقها فى كل محاولة لإبرازها. إذ أنه ليس من الممكن -ولعل هذه سمة من السمات الأساسية لثقافتنا- أن نبقى، فى حزم وإصرار غير محددين، فى فجوة اللاعقل. فهذه الفجوة لابد من تناسيها وإغائها بنفس القدر الذى تُحس فيه عبر الدُوار الحسى وعزلة الجنون. لقد دلل على ذلك فان جوخ ونيتشة بدورهما، إذ أن افتتانهما بهذيان

الواقع وبريق المظهر وإلغاء الزمان، ثم عودته الأبدية فى ضوء العدالة، وانهارهما بالصلافة، التى لا تتبدل، لأهش المظاهر، كل ذلك أدى إلى إقصائهما وعزلهما بصرامة وقسوة فى قلب ألم لا مقابل له، ألم لا يمثل بالنسبة للآخرين فحسب، وإنما بالنسبة لهما وفى حقيقتهما اليقينية المباشرة، إلا الجنون»^(٢٣).

إن تحديد العقل فى حوار الفيلسوف (ديدرو) والجنون (رامو) يتطلب تحديداً لضرب من النظام وإبرازاً للملامحه وأطره، كما أن تحديد اللاعقل -أو ما يسميه فوكو الصورة النقدية للجنون- ليس إلا بمثابة إدراك لحدود هذا النظام وإبراز لهذه المنطقة من الظل أو فجوة اللاعقل، التى تقع على تخوم العقل، والتى لا يمكن تجاوزها أو اختراقها من غير أن نتردى فى هاوية العدم حيث لا خلق ولا إبداع. من ثم تبرز لنا هذه المنطقة العازلة بين العقل ونقيضه اللاعقل كمنطقة محرمة لا يمكننا أن نجازف بالانخراط فيها من غير أن نشكك فى عقلانية النظام كله، وهو أمر لا يجوز إلا للجنون أو أبله. ولاشك أن الإحساس بهذا الحد الفاصل، الحد الذى يبدأ عنده الدوار أو الهذيان، يرتبط عند ديدرو -الذى تتلاشى الفواصل الاجتماعية فى عالمه القصصى بطريقة ملحوظة^(٢٤) - برعى مرهف وإحساس بالغ الدقة بصيرورة التاريخ وبالعالم النسبية والاحتمال. من ثم تكون هذه الظلال، التى تحيط بالعقل، والتى يبدأ يتطرق إليها العقل المتشكك -أو المتخبط سواء بسواء فى نظر العقل السوى-، والتى

تنتهى بإحداث صدع فى كيان النسق الفكرى والأخلاقي، إحدى شروط الإمكان لانبثاق الجنون ووعيه فى خطاب الجنون.

إن إمكانية انبثاق اللاعقل وخطابه قد فطن إليها أول ما فطن فيلسوف المثالية الجدلية هيغل بفكره الشاقب اللماح، فأشار إليها فى كتابه "ظاهريات الروح"^(٢٥) على أنها إحدى علامات التمزق وضياح القيم الإنسانية فى عالم "المدينة". ومن المعروف أن هيغل لا يأخذ معنى المدينة فى مدلولها الإيجابى الذى يخطر على بالنا لأول وهلة: فالمدينة بالنسبة لهيغل، الذى يحكم على الأشياء من منظور الشمولية ومطابقة الضمير المؤمن لذاته، مكان ضياح الروح وتموضعها فى صورة العالم -فى- ذاته. ويرى هيغل أن الإنسان، فى هذا العالم الممتد من نهاية العصور الوسطى إلى فجر الثورة الفرنسية، يغترب فى عمله، كما أن الشعور يفقد تدريجياً مطابقته لذاته الأصيلة. من ثم فإن روح الفضيلة، المتمثلة فى ذاتها، أخذت مع بداية هذا العالم المتدنئ تسلك مسالك المراوغة والازدواج. يقول هيغل:

«إن ما له وجود ها هنا ليس له إلا قيمة الوجود الموضوعى فقط، أما الشعور الصادق بالذات فهو فى العالم الآخر، من ثم فإن كل لحظة فردية تتلقى جوهرها وواقعها من قبل كائن آخر، وبمقدار ما تتواجد هذه اللحظة بالفعل، بمقدار ما يكون جوهرها شيئاً آخر غير واقعها»^(٢٦).

حينما ينفصل، على هذا النحو، عالم الوجود عن ماهيته، فإن الشعور يطرح قضية وجوده من خلال صورتين: صورة ألهو المباشر (Le Soi)، وصورة ألهو العالمى أو شعور الفكرة. وسرعان ما يتحول شعور الفكرة إلى تعقل خالص، وهو ما يبرز بعد تحول الكائن-فى-ذاته (الوجود المطلق) إلى كائن-لذاته (الوجود الفردى المباشر) خلال فلسفة التنوير، التى سوف تقوم بدورها بمعارضة قضية العقيدة والإيمان من منطق الثنائية، أى معارضتها لشيء منسلخ عن جوهره.

إن هذه الازدواجية التى تنبث فى قلب الشعور سرعان ما تشكل حينما تلج عالم الروح، السمة الرئيسية التى يسم بها هيجل عالم المدنية. من ثم، تكون المدنية، عند هيجل، بمثابة تحول الضمير الحى إلى مؤسسة، سواء أكانت هذه المؤسسة نظاماً سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو ثقافياً، الأمر الذى يتطلب فى نظره تضافر فعلين: فعل الفرد فى التخلّى عن ذاته أو دنياه المباشرة حتى يصير عالمياً ويرتقى إلى الجوهر، وفعل المطلق أو الفكرة المجردة التى تتعين باندماجها فى الفرد فتصبح مدنية. من ثم، فالمدنية ليست إلا استحضاراً للجوهر؛ أى لعالم القيم من خلال الأفراد. أما "ألهو" فإنه لا يستطيع إدراك ذاته عبر المدنية مباشرة، كما كان الأمر فى عالم العقيدة والروح المباشرة. بل على النقيض من ذلك، إن "ألهو" لم يعد يدرك ذاته إلا من خلال صورته السلبية المناقضة لحقيقته. ذلك أن إدراك الذات وإدراك الموضوع

أو العالم الظاهري لا يتطابقان البتة في عالم المدنية إذ أن انبثاق المطلق عبر "الهر" لن يتم هنا إلا في صورة مجموعة متعاقبة من اللحظات المتعارضة، كما أن السلبية ستفجر من جراء تحليل الروح العالمية إلى حشد من النزعات الفردية التي تزدهر حينما تبسط مفاهيم الثروة المادية سلطانها على مقاليد الدولة في فرنسا إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر، أى حينما يعمل الفرد على استبدال الغايات العامة بمصلحته الشخصية كما لو أن شعوره المتحرر قد استأثر بالجواهر لنفسه دون غيره. إلا أن الشعور لا يستطيع، مع ذلك، التخلص من شقائه إذ أنه لا يتحقق تمامًا من طبيعة إدراكه لذاته بسبب نزعته المتزايدة إلى خلط ما هو لذاته مع الموجود-في-ذاته، وعجزه عن التمييز بين الجزئى والكللى أو الذاتى والموضوعى. يقول هيجل:

«إن الخير هو تطابق الواقع الموضوعى مع وعى الذات، والشر هو فقدان هذا التطابق. من ثم يصبح كل ما هو خير أو شر بالنسبة لهذا الوعى خيراً أو شراً فى ذاته، فلقد أضحى هذا الأخير الوسط الذى تتحد فيه لحظتا الوجود-فى-ذاته والوجود-لذاته»^(٢٧).

أضف إلى ذلك أنه بتطور الثروة فى قلب عالم المدنية، فإن مفاهيم الخير والشر تنقلب رأساً على عقب، فالخير بعد أن كان موجوداً-فى-ذاته أصبح موجوداً لذاته، على عكس حركة الشر التى أصبحت موجوداً فى ذاته. ولما كان الشر هو اللامتطابق، بصفة

متعاطفة، مع حياة الشعور، فإن ماهية الذات لم تعد إلا دريأ من دروب تموضعها واغترابها، بدلاً من أن تكون سبيلاً لتحررها وتضعوها. ومع ذلك، فإن "الشعور الدنيء" لا يدرك هذا التموضع على حقيقته، إذ أنه يحس به في صورة تمرد، بينما يقوم "الشعور النبيل"، الذي مازال محافظاً على إحساسه بمبادئ الشرف بالتخلي عن ذاته والتضحية بها في سبيل الدولة أو الموجد-في-ذاته. ولاشك أن الشعور النبيل في تضحيته هذه بكل ما هو فردى ومباشر لا يفعل شيئاً أكثر من تطابقه مع جوهره، وتأكيد ما يسميه هيجل "بطولة الخدمة الصامتة". إلا أنه حينما تبدأ سلطة الدولة في التفرد، خاصة ابتداء من حكم لويس الرابع عشر (الدولة هي أنا)، فإن الشعور النبيل يكون قد تجاوز جوهره إلى ما يسميه الفيلسوف "بطولة التملق". من ثم لم تعد تضحيته موجهة إلى الموجد-في-ذاته- وإنما إلى الموجد لذاته. وهو بفقدانه لتطابقه مع ماهيته، لن يستطيع، بعد الآن، التمييز عن الشعور الدنيء؛ إذ أنه فقد التحامه بعالمية الفكرة وامتلاً بالامتنان للثروة وبالعرفان لصاحبها. أضف إلى ذلك أن الموجد لذاته سيغترب-لا محالة- في الثروة، لأن إدراك الذات لنفسها لن يتم إلا من الظاهر وكأنها تخص الغير، وكأنها خاضعة لصدفة اللحظة أو النزوة، ومرتبطة، بشكل أو آخر، بأتفه الظروف وأبعدها عن الأهمية والجدوى. (٢٨)

هكذا تتشياً الذات وتغزب كلية. وفي قلب هذا الاغتراب وانسلاخ الذات عن مركزها يتحلل كل شيء: «تتحلل الاستمرارية والعالمية ويتحلل كل ما نسميه قانوناً أو خيراً أو حقاً، يتحلل كل ذلك ويتردى في الهاوية»^(٢٩). كما ينبثق، في الوقت نفسه، خطاب الجنون ليستقر في مكانه من الفجوة، حيث يحى نهائياً كل تعارض بين الشعور النبيل والشعور الدنيء.

ويميز هيجل في هذا الخطاب بين ما يسميه "الضمير المحسن" و"الضمير المتلقى للإحسان". أما الضمير الأول، فليس في مقدوره بلوغ جوهر الفكرة حتى ولو تجاوز فردية المتعة الواهبة، لأن «عطاءه ليس مجرداً من الأنانية والخصوصية، وليس تعبيراً تلقائياً منزهاً عن الغرض والهووى بقدر ما هو "فعل مدرك لذاته". ومن ثم، فهو شعور مستقل ومستبد، لا يقل دناءة عن الذى يقع عليه الإحسان. إنه شعور مغرور يتغافل عن الثورة النفسية للآخر الذى يريد اكتسابه بفضل وجبة، متناسياً أنه يحمره بذلك من كل قيد والتزام، ويهدم لديه كل شعور بالوفاء والولاء»^(٣٠).

أما الضمير الدنيء، المتقبل للإحسان، فإنه إذ يستخدم اللغة كأداة لتملق السلطة المتفردة فإنما يستخدمها حيال الثروة في صورة رياء خبيس، فاللغة لم تعد تعبر هنا عن جوهرها الأصيل وإنما عن الجوهر المهجور: إنها تصير لغواً وثرثرة فارغة، فهي لم تعد تهدف إلى إطراء

الموجود-فى-ذاته (القيم)، وإنما تسعى لإرضاء غرورها بالثناء على الموجود-لذاته. وإذا كانت اللغة بعامة لا تستطيع، فى هذه المرحلة التاريخية، التعبير بصفة كاملة عن اتحاد العالمية بالفردية، فإنها -لاشك- تستطيع التعبير عن التمزق الذى يتم فى قلب الذات ويحولها إلى عالم الشيئية. يقول هيغل:

«إن لغة التمزق هى اللغة التامة والروح الصادقة لكل ما هو موجود فى عالم المدنية، إذ أن وعى الذات بنفسها، فى انتمائها لهذه الثورة الرافضة لرفضها، إنما هو عين تطابقها التام والتلقائى مع ذاتها فى قلب التمزق المطلق»^(٣١).

على هذا النحو، حينما تعى الذات ظاهرية إدراكها لنفسها، كما لو أنها تدرك نفسها فى صورة الآخر، فإنها تتحول إلى مدنية خالصة وفساد عام. وكل شئ يصبح، بالنسبة لها، تصنعاً ورياءً، إذ أنها لم تعد مكاناً لاتحاد الجوهر بالوجود أو التقاء الروح العالمية بالفردية نظراً لكونها، هى نفسها، موضوعاً خارجاً على كيانها. كذلك يفسد الخير والشر تجاهها بسبب تغلب المعيار الظاهرى وسيطرة الشكلية والحرفية على الروح والمضمون: من ثم يقول هيغل: «كل شئ، وفقاً لظاهره، سواء، فهو نقيض لما هو-لذاته، وما هو-لذاته ليس مطابقاً لحقيقته، بل مخالفاً لما يريد أن يكون»^(٣٢).

لا غرابة إذن أن يتحقق وفقاً للفيلسوف هذا المنحى الظاهري في شخصية "ابن أخ رامو" الذي يجمع في حياته العملية بين كل ألوان المتناقضات؛ فهو التحقق الحر لكل أشكال الذاتية المتطرفة، وهو في خطابه المتناقض «لسان حال الكلام في عالميته، وفي حكمه المدمر لكل شيء»^(٣٣). إن هذه الشخصية لتعبر إذن خير تعبير عن واقع "الروح" في عالم المدنية الشكلية إذا قورنت بضمير الفيلسوف المعذب ووجدانه الممزق حسرة ومرارة على انهيار القيم والمبادئ، الذي إن دل على شيء، فإنما يدل - قبل ضياع الجنون - على ضياع عصره واغترابه المهين.

لا جرم أن يكون الحق، أمام القوة الجدلية الوثابة لهذه الشخصية باهتاً وضعيفاً لا إغراء فيه ولا بريق. فهو لم يعد يوجد، في أحسن الظروف وأفضلها بالنسبة للشعور النبيل، إلا شتيتاً نادراً ندرة النفوس الطيبة المخلصة. إلا أن هذه القوة المقوضة لروح المدنية سوف تنتهي - لا محالة - بالانقلاب على نفسها حينما تصل إلى قمة الخواء فترتفع بتفاهة الأشياء وضحالة الواقع المباشر إلى مستوى العالمية. فالذات المغتربة حينما تصل ها هنا إلى قمة العالمية سرعان ما ترتد على نفسها وتدرك طبيعتها الذاتية المحدودة، فهي وإن استطاعت الحكم على المطلق في لحظة من لحظات التطور، لحظة التناقض والفساد، لا تستطيع إدراك المطلق في كليته أو شموله، إذ أنها لم تنفذ لحظة إلى ماهيته إلا خلال التمزق والضياع الذي تمثلت فيهما خير تمثيل. وهي لا تكاد تعي هذه اللحظة،

لحظة توحيد الأضداد التي تجمعت فيها حتى تعى حقيقتها المرة: وهى أن هذا التمزق هو تمزقها الذاتى وليس تمزق الروح أو المطلق.^(٣٤)

على هذا النحو، تتضح لنا قصة "رامو" بجلاء: إنها تمثل قمة الاغتراب بالنسبة للعقل الغربى، وهو العقل الذى يرتبط أنطولوجياً، بالنسبة لهيجل، بعالم القيم الأرستقراطية^(٣٥): فالقيم الأرستقراطية تنحدر فعلاً فى بدايات العصر الحديث، عصر المدنية الشكلى، حيث تسود سلطة الحاكم الفردى المستبد وتسود القيم النفعية مع قيام المجتمع البرجوازى. من ثم نرى أن القيم المادية الجديدة ترد الإنسان إلى فعاليته الخارجية، وتؤسس أنطولوجيتها الجديدة لا على مضمون الفعل وتقديره فى ذاته، وإنما على الشكل والظاهر. من هنا تبدأ الشكلى فى اكتساب كثافة الوجود، إلا أنها فى النهاية لن تستطيع تجاوز حدود طبيعتها إلا وهى - فى هذه المرحلة التاريخية التى تنتهى بالثورة الفرنسية - الصورة المسوخة التى تقدمها لنا شخصية "الجنون" فى حوار الفيلسوف والجنون.

وباختصار، إن تمزق الضمير يتمثل فى انفصامه إلى ماهية ووجود، وباطن وظاهر، ولاشك أن هذا الانفصام، بالنسبة لفيلسوف المثالية الأرستقراطية، هو مصدر شقاء الضمير الغربى. لذلك يعمل هيجل جاهداً على رفض منظور الثنائية الكانطية التى تعجز، فى نظره، عن التوفيق بين الطبيعة فى استقلاليتها وبين شعور الإلزام الخلقى، ويقدم

لنا منظوره الخاص القائم على الشمولية والكمون. إن هذا المنظور، القائم على الشمولية الحية والتناسق البديع بين الروح المتمثلة فى الذات الحرة أو الإرادة، وبين العالم، يسمح فى نهاية المطاف للعقل، الذى ارتقى خلال مرحلة استقلاليته الجديدة إلى مرتبة وعيه ومعرفته بذاته، أن يصل إلى أسمى درجات التحرر، فهو من الآن فصاعداً الذات الصانعة للتاريخ، وذلك بالقدر الذى استطاع فيه تجاوز ثنائيه القديمة بين الذات والموضوع وتفهم الطابع الشمولى الذى لا يتجزأ لحيته: أى أن حرية الإنسان لا تتحقق فعلاً إلا بالقدر الذى تتحقق فيه حرية الآخرين.^(٣٦)

إلا أن الرضع لم يكن على هذا النحو تماماً، أى لم يكن قائماً على الحرية بهذا المعنى، خلال عصر التنوير، فلقد سيطرت على المجتمع حينئذ، وفقاً لكلام المعتوه "رامو"، طبقتان متعارضتان: طبقة السادة المستبدين من جهة، وطبقة العبيك من المستضعفين من جهة أخرى. من ثم، فإن الحرية لم تكن إلا كلمة جوفاء تتحرك بها الأشداق وتلوكها الألسنة، أو وهماً يتألق كبريق السراب على صفحة الأشياء الزائفة.

فى هذا العالم المغلوط، حيث استشرت العلاقات المادية الخالصة وطغت المفاهيم النفعية والعملية، تقلص الإنسان إلى مزبلة السلعة التى تباع وتشتري، وتوقع فى وظيفته الدنيا، وظيفه الأداة التى يبندها الناس بعيداً حينما يكونون قد استنفدوا أغراضهم منها. وفى هذا المجتمع، الذى لا قيمة للإنسان فيه إلا بفعاليته الظاهرة وقدرته على الحركة والإنجاز،

صار الفقير؛ أو قل الإنسان المدفوع إلى الفقر، مسخرة خالصة. فكل شيء في هذه الدنيا، دنيا الثروة والجاه، قد أصبح مظهرًا إلى درجة الفجاجة والتشويه: القيم قد فرغت من مضامينها، والفكر تقطعت أسبابه وغاياته السامية حتى أضحي تمثيلية الفكر ومهزلة الصارخة. أرايت إلى هذا الجنون كيف يصور لنا قضية الحكم على الأشياء، إنه يعدد مظاهرها الخارجية، وكأننا به أمام مجموعة من الإشارات والحركات التي تقدم لنا في عرض هزلي ملء بالمرارة والسخرية. يقول المعتوه في حوار مع الفيلسوف:

«لا يجدر بنا أن نريد دائمًا بالطريقة نفسها، فذلك يدعو إلى الرتابة، كما قد يبدو نوعًا من الزيف، كما أننا سوف نفقد بريقنا. وليس هناك من خلاص إلا في حسن التقدير وخصوبة الابتكار: علينا أن نعرف كيف نعد وأين نضع النبرات القوية الحاسمة، وأن نستغل الفرصة أو اللحظة الملائمة، مثلاً حينما تتوزع العواطف، ويستخدم الشجار إلى درجة من الصخب لا تكاد تسمع فيها أحداً، أو حينما يتكلم المجتمعون في آن واحد. عليك، حينئذ، أن تكون على أفراد، وفي أبعد زاوية ممكنة من البيت عن ساحة المعركة، وعليك، بعد أن تكون قد مهدت لثورتك بصمت طويل، أن تنقض فجأة على الجمع كوقع القنبلة المدوية على جماعة المتنازعين. إنني لا أجد لي بديلاً في هذا الفن. ولكني أبرز كذلك، وإلى حد الاندهاش في نقيض ذلك، إذ أن لي عددًا من النبرات

الخافطة التي أقرنها بابتسامة، ومجموعة متنوعة من تعبيرات التأييد يدخل فيها الأنف والفم تارة، وتلعب فيها دورها العين والجبين تارة أخرى، كما أن لى مرونة أضلاع، وطريقة فى ثنى السلسلة الفقرية، وفى هز الأكتاف خفضاً ورفعاً، ومد الأصابع، وإحناء الرأس وغض الطرف، وإظهار الدهشة والذهول كما لو أننى أسمع صوتاً ملائكيًا يتنزل من السماء»^(٣٧).

لاشك أن هذا الحكم الظاهرى، الذى يذكرنا بمحاكاة القرد لبنى الإنسان، ليس إلا الصورة الصادقة، البالغة التعبير والتأثير للإنسان-الشيء. ألم يكن يقول المعتوه عن سادته بأنهم: «يصنعون به ومعه وأمامه كل ما يريدون»^(٣٨). لقد كان هذا الشقى البائس فى مرتبة الأشياء لاعتبارات عدة: أهمها لكونه معتوفاً وطفيلاً وفقيراً. إلا أن جنونه لم يكن له على الإطلاق إطباق المرض العقلى المحكم أو كثافة العلة الباثولوجية التى لا تقبل لنظرة الطبيب شريكاً. إن جنون هذا الرجل كان أبعد ما يكون صلة بالوجود الإيجابى لهذا المرض، بل على العكس، لقد كان جنونه سلباً خالصاً، ومن ثم مرآة بالغة الشفافية لاجتماعه وعصره. لقد كان جنونه وليد هذا الجنون العام الذى كان يدفع أبناء عصره إلى التكالب على الثراء، وذلك إلى الدرجة "الجنونية" التى تنزع إلى تملك الجنون نفسه. ألا يقول المعتوه لغريمه الفيلسوف فى حكمة مذهلة:

«لقد وُجِدَتْ، ولعهد طويل، شخصية المجنون الرسمية، ولكن لم توجد، فى أى عهد، شخصية العاقل. إئننى المجنون الذى يخص السيد برتان وكثيرين غيره، قد أكون بمجنونك فى هذه اللحظة، أو قد تكون أنت مجنونى. إن العاقل من ليس له مجنون قط، فالذى له مجنون ليس بعاقل، وإذا لم يكن عاقلاً فهو مجنون»^(٣٩).

يبد أن العقل ينتهى، للأسف، فى لعبة الملكية هذه -وما هى إلا الحركة الرمزية البالغة الدلالة لمجتمع لا يستطيع إدراك كنهه إلا فى صورة الملكية- بالوقوع فى جبال لعبته وبالضياع. إذ أن حب الملكية إلى حد الهوس الذى يدفع إلى تملك المجنون -أى الإنسان فى واقع الأمر- إنما هو تحقيق لروح الثروة فى أقصى أشكالها المسوخة، وهى وصول الإنسان فى حبه للتملك إلى جنون التملك.

إن قلب الأوضاع المتحقق ها هنا فى أبلغ دلالاته الرمزية، والذى تسمح الومضات الهيكلية بإدراكه عبر تعيين الفكرة فى مسارها التاريخى، لأكتف مضموناً لو أثريناه بإلحاقه بالمنظور المعرفى الذى حدده لنا فوكو فى دراسته لتاريخ الجنون^(٤٠). فلقد حاول فوكو أن يرسم لنا من خلال منحنى التوضع الذى تشكلت من خلاله حياة العقل أثر اللحظة التى تم فيها استبعاد الجنون وإقصاؤه فى صورة السلبية المطلقة والفراغ التام؛ الأمر الذى كشف له، بعد حركة العزل التى تمت فى القرن السابع عشر، أن الجنون قد عاود الظهور، خلال القرن التالى،

وفى داخل مجال العقل نفسه، ولكن ليس ليختلط به، كما كان الأمر فى السابق، وإنما ليُكْرَس لخدمته.

إن الجنون يبرز خلال القرن الثامن عشر، فى شكل من أشكال الغائية - هذا الغياب أو الوجود المطلق سواءً بسواء - التى يركز عليها كل نظام وتقوم كل حكمة. وإذا كان هذا الجنون يصعب إدراكه فى ماهيته بصورة عامة، إلا أنه من السهل إدراكه من خلال تحديد سمات الجنون، أو الآخر على الوجه الأكمل.^(٤١) ومع ذلك إذا كان شعورنا بالآخر يتم فى القرن السابع عشر من خلال المعرفة اليقينية للذات (الكوجيتو الديكارتي)، فإن حركة الشعور تتحدد، إبان القرن الثامن عشر الذى يتحول إلى أرضية معرفية ظاهرية وموضوعية، من خلال حقل خارجى يبرز فيه الجنون فى صورة المغايرة التامة: إن الجنون هو الآخر.

على ضوء هذا المنظور الجديد، تستبعد الذات عن الجنون، وتتأكد عقلانية العقل بما لا يقبل اللبس، إذ لا يعقل أن أعى ذاتى وأكون مجنوناً، أو أفكر وأكون مجنوناً، كما يكتسب الجنون أو الآخر، فى الوقت نفسه، قيمة موضوعية خارجة عن الذات العارفة. من ثم يدخل الجنون فى حبات العقلانية الجديدة، التى تقلد العلوم التجريبية الصاعدة فى فصلها للذات عن الموضوع، ولا يعود - كما فى التجربة الأولى - مجرد منافاة لإيجابية العقل أو مجرد ظلال تتعارض مع نوره.

لقد أصبح الجنون، منذ هذه اللحظة، خارج مجال العقل تمامًا كشخصية الآخر التي تنحرف عن القاعدة السوية، ولكنها تخضع، مع ذلك، لحكم العقل، لأن هذا الأخير يظل الذات العارفة^(٤٢). ويتم عادة حكم العقل على الجنون، في عصر التنوير بوساطة طريقتين: طريقة معيارية، وهى قياس الجنون كظاهرة انحرافية بالنسبة للسوية التى كثيراً ما تدخل فى تحديدها مبادئ أيديولوجية، وطريقة موضوعية تقوم على تحويل السلبية القديمة للجنون، القائمة على سمات المغايرة، إلى إيجابية. يقول لنا فوكو بشأن هذه السلبية الخلقية للجنون:

«هذه السلبية لم تعد تشكل شيئاً آخر غير الإيجابية التى يمكن معرفتها عنه: إذ أن الهوة النقدية والانفعالية التى فجرها الرفض وعدم التعرف والحناء الشخصى أصبحت هى المجال الذى سرف تنشق فيه بهدوء السمات التى سوف تتشكل منها رويداً رويداً حقيقة إيجابية»^(٤٣).

وليست هذه الإيجابية الجديدة إلا "المحتوى العقلى" للجنون وعقلانيته نفسها، ولكنها عقلانية تختلف جذرياً عن عقلانية العقل لأن عقلانية الجنون تدرك من الخارج على شكل موضوع. وليس من شك فى أن مشروعية فكرة الموضوع، التى توصل إليها مفكرو القرن الثامن عشر، هى شرط لازم لقيام أى علم وضعى، ولتأسيس أية وضعية بصفة عامة. إلا أن وضعية الجنون، وامتدادها إلى حقل العقلانية أو خضوعها

لمنطق الظاهرية، لم تعط جميعاً أية نتائج هامة خلال هذا القرن، ذلك أن الجنون قد أدمج -من غير منطق واضح- بالنظام الوضعي والمخطط لكل الأمراض الممكنة، وبطبيعة باثولوجية لا تقوم على الخيال والهوى بقدر ما تقوم على العقل والنظام. غير أن الجنون -للأسف- لا يشكل، مثل بقية الأمراض العضوية، حقلاً يسكنه مبدأ العالمية الباثولوجية، فهو مرض ذو طبيعة خاصة، ولا يمكنك -بالتالى- أن تطالبه بالاتساق مع نفسه أو بالتطابق مع أعراضه. إنه يشكل -كما يقول فوكو-: «هذا المكان الخالى الذى يصبح فيه كل شىء ممكناً ماعدا النظام المنطقى لهذا المكان»^(٤٤).

لا جرم أن يكون استعصاء الجنون على إدماجه بقائمة التصنيفات المرضية العامة سبباً قوياً فى اختلاطه، من جديد، بعالم اللاعقل، وهى الإمكانية التى حققتها شخصية "رامو" أحسن تحقيق. إلا أن اختلاط اللاعقل بالجنون يبتئنا، هذه المرة، بفراقهما القادم إلى غير رجعة: فاللاعقل سوف يقودنا مباشرة إلى هيلدرلين ونيتشة وأرتو، أما الجنون فسيلقينا فى هاوية الأمراض العقلية حيث يخيم الصمت الرهيب.

إن اختلاط الجنون بالعقل، مرة أخرى، فى شخصية المعتوه، يعنى قدرة اللاعقل على إدراك الحقيقة من جديد. إذ، كما يقول فوكو: «إن إمكانية السؤال عن العقل تتولد من قاع اللاعقل نفسه، كما تتوفر،

من جديد، إمكانية إدراك ماهية الوجود من خلال هذيان يجمع، فى صورة وهم مواز للحقيقة، بين وجود الواقع ولا وجوده»^(٤٥).

إلا أن الحقيقة، التى يدركها المجنون فى هذيانه، تتجاوز هنا بكثير "تفاهة البشر الجنونية" التى يتحدث عنها الكاتب، إذ أن هذه الحقيقة، النابعة من أعماق التمزق الذى يصيب الإنسان الضائع، ومن أغوار لغة الهذيان المعكوسة وأوهام اليقظة، لتشكل أكثر الظروف ملائمة لقيام مجتمع الظلم ونقيضه الحى. كما أن الوهم الذى يدركه المجنون ببصيرته المغترية ليس إلا الصورة السرابية البراقة للحقيقة. إنه هذا الوجود للفراغ الذى يملأ عالم العجز، ويعبر عن نفسه أفضل تعبير فى خطاب الرغبة التى لا تعجز، وهى فى قمة تأثيرها الدرامى وتلذذها بالهبوط إلى أرخص ألوان التهكم، عن هز قلوبنا وإثارة عواطفنا بالإشارة إلى المساواة:

«الفيلسوف: إنى أخشى ألا تصبح غنياً قط

المعتوه: وأنا عندى شك فى ذلك.

الفيلسوف: ولكن إذا حدث العكس، ماذا كنت ستفعل؟

المعتوه: كنت سأصير مثل جميع المتسولين الذين أثروا، كنت

سأصير أكبر بلىء رآه الناس حتى الآن. حينئذ كنت

سأتذكر ما غانيتها من الذين آذونى، وكنت سأرد إليهم

بعناية، كل الإهانات التى وجهوها إلى. إننى أحب أن يثنى على الناس، وسوف يثنون على. سوف أستأجر كل جماعات المختسب "فيلمور" وسوف أقول لهم، كما قالوا لى: هيا، أيها الأوغاد، ادخلوا البهجة على نفسى، وسوف يدخلونها، وسأقول مزقوا سمعة الناس الشرفاء وسوف يمزقونها، إذا كان مازال هناك شرفاء، ثم سوف نحصل على المتعة، وحينما سنصل إلى حد الثمالة، سوف تتساوى فى النداء، وسوف ننسج الحكايات، وسوف تكون لنا كل صنوف العيوب، والرذائل. كم سيكون هذا للذيذا!»^(٤٦).

إلا أن المساواة، التى يوحى بها هذا النص، ليست للأسف إلا ثمرة من ثمار السكر وهذيانه الذى يدفعنا إلى الانزلاق، من غير وعى، من لهجة الأمر والنهى إلى لهجة الندية، من ثم فدعوى المساواة، التى نقع عليها هنا، هى أشبه بحلم عامر بالأمل، ولكنه مجرد حلم أو وهم برّاق سرعان ما يردنا إلى عالم النقص الأول أو إلى الفوارق الجذرية التى يغرسها التاريخ فى قلب الطبيعة. على هذا النحو لا تعدو المساواة، حينما تردنا عبر أحلام البائسين والضائعين إلى قاعدة الظلم الأولى، التى يقوم عليها مجتمع الثروة، أن تكون ضرباً من الخبل والجنون. فهى أشبه ما يكون، فى هذه الحال، بحلم العبد الأخرق عن الحرية، وبسخرية الأقدار المريعة حينما لا يتورع الطفيلى البائس، فى تعطشه للحرية

والعدالة، عن تبنى أحكام النظام المستغلة ونسخ مبادئها الهدامة. من هنا نقرأ فى حوار ديدرو:

«المعتوه: كنت فى السابق أسرق أموال تلاميذى، نعم كنت أسرقها، هذا شىء مؤكد. أما الآن، فإننى أكسب هذه الأموال، على الأقل، مثل الآخرين.

الفيلسوف: وهل كنت تسرقها من غير أن يؤنبك ضميرك؟

المعتوه: أجل من غير تأنيب ضمير. يقال إنه إذا سرق لص زميله، ضحكت الشياطين. إن أهالى التلاميذ كانوا يفصون بشرواتهم المكتسبة، مكتسبة الله يعلم كيف. لقد كانوا من رجال الحاشية ومن رجال المال والأعمال والبنوك وكبار التجار. إننى كنت أساعدهم، ومعى شذمة من الصعاليك الذين يستخدمونهم مثلى، على رد هذه الأموال. فإذا كانت كل الأنواع تتصارع فى الطبيعة، فإن كل الأوساط تتقاتل فى المجتمع. إننا كنا نقيم العدالة على طريقتنا، من غير تدخل القانون».^(٤٧)

ليس من شك فى أن حلمك، على هذا النحو، بنوع من المساواة الرهمية، أو بضرب من العدالة المقلوبة، إن صح هذا القول، ليس فى وسعه إلا أن يؤكد الطبيعة الاستغلالية للنظام المستغل، وأن يعمق طبيعة المجنون المغتربة والداعية إلى الاغتراب على السواء. إذ ليس من شك

فى أن طبيعة الجنون مغتربة بالقدر الذى تشكل فيه نتاجاً للحمية الاجتماعية، الأمر الذى تؤكد صرخات المسكين: «وئس البوس، إن صوت الضمير والشرف لجد ضعيف حينما تصرخ الأحشاء»^(٤٨)، ودافعة إلى الاغتراب بالقدر الذى تتبنى فيه هذه الطبيعة نظام المجتمع الفاسد وتعمل على تكاثر رذائله التى تعيش منها، وتغذى اغترابها بها فى الوقت نفسه. أترى إلى هذا الجنون وما يقوله لنا فى منطق المغلوط:

«ومادمت أستطيع بناء سعادتي على رذائل تتلاءم مع طبيعتي، رذائل اكتسبتها من غير مجهود، وأحتفظ بها من غير عناء، وتتفق مع أخلاق أمتي، وترضى ذوق أرباب نعمتي، بل وأشبه باحتياجاتهم الخاصة من هذه الفضائل التى تضايقهم، والتى يلقون عليها اللوم صباح مساء، أليس من الغريب أن أقوم بتعذيب نفسي، كما لو كان قد حُكم على بالشقاء الأبدى لأغير من شخصيتي وأزودها بطباع غريبة عليها، طباع قيمة لا جدال، ولكنها طباع سوف تكلفني كثيراً حتى أكتسبها وأمارسها، ولن تقودني إلى أى شيء، وربما إلى أقل من شيء لو انسقت وراء هجاء الأثرياء الذين يحتاج إليهم أمثالي من المتسكعين لكسب قوتهم»^(٤٩).

هكذا ترسم أمامنا هذه الدائرة الخبيثة، حيث يردنا الإنسان المغترب إلى المجتمع الذى تسبب فى اغترابه، ويردنا المجتمع المريض بدوره إلى نتاجه المرضى، وهو الإنسان الضائع. إلا أن شخصية الطفيلي-المعتوه

تفقد، على هذا النحو، جاذبيتها كقوة قارضة لتصبح مجرد صورة هزلية
ممسوخة لمجتمع العصر. بل إن الصورة التي يقدمها لنا ديدرو في هذا
النص، لا تعدو كونها مسخاً لعالمين: عالم الأثرياء برذائلهم المعروفة،
وعالم البؤساء والمعدمين بآثارهم المؤسفة. من ثم، حينما يعكس لنا
"رامو" بطريقته المضخمة، وهى أساس فن التشويه، مجتمع الأثرياء، إنما
يعبر عن الثنائية الخبيثة التى يقوم عليها فن النفاق والرياء، كما أنه يقدم
لنا، فى الوقت نفسه، الصورة المصطنعة الزائفة للانتهازية والوصولية. إن
فن القناع أو النفاق موجود فى كل حركة من حركات المعنوه: فى
حركة الممثل الذى يحسن، ببراعة لا نظير لها، إظهار عكس ما يظن؛
وفى إيقاع الحياة الزاحفة المطاطة التى تضيف على شخصية الطفيلى
طابعه الطبع المتلون؛ وأخيراً فى الأدوار الملتوية التى تعتمد على الالتباس
والتمويه. فلنستمع إليه وهو يشرح للفيلسوف إحدى اختراعاته الفنية:

«إن حركة إظهار الإعجاب بواسطة الظهر، التى حدثت عندها،
من ابتكاراتى الخاصة، وإن كان بعض الحاسدين قد ينازعوننى إياها.
إننى أعتقد أنها قد استخدمت من قبل، ولكن من ذا الذى أحس كم هى
ملائمة للاستهزاء سراً من الشخص الوقح الذى نهدى له الإعجاب»^(٥٠).

من هنا كان غموض الفعل مرادفاً لصدع يتم فى قلب الوجود
المستتب، وعلامة على ولوج بذور الالتباس والخلاف فى عالم التجانس
والوفاق. وليس من شك، فى أن هذا الموقف الغائم هو ما يسمح

بتسرب مبادئ الاستثناء، ثم سيطرة الحالات الخاصة على القواعد العامة للاستغلال. يقول "رامو" في هذا الصدد:

«والحاكم والوزير ورجال المال والإدارة والجيش والأديب والمحامي والنائب العام والتاجر والمشتغل بالبنوك والصانع وأستاذ الغناء والرقص، لا أشك في أنهم جميعاً من الشرفاء، على الرغم من أن سلوكهم قد ينحرف في بعض النقاط عن الضمير العام ولربما كان مليحاً بالاستثناءات الخلقية. إذ أنه كلما كانت مؤسسات المجتمع راسخة في القدم كلما كثرت الاستثناءات، وكما يقال: قدر الرجال هو الذي يصنع قدر المهنة، وبالعكس كما رأينا مؤخراً إذ أن قدر المهنة هو الذي يصنع قدر الرجل من ثم كان علينا أن نستغل المهنة بقدر المستطاع»^(٥١).

ولما كان الفعل يفقد، على هذا النحو، قيمته الذاتية، ويتحول، بعد قلب المعايير وضياع القيم، من وسيلة إلى غاية، فإن كل شيء في الحياة يصبح صورياً بحتاً، وتتغلب المظاهر البراقة على كل أصالة وطهارة. هات ما عندك أيها المجنون العاقل:

«قالوا بأن السمعة الطيبة أفضل من حزام ذهبي، ومع ذلك، فليس كل منه له سمعة طيبة يملك حزاماً من ذهب، وإنني لأرى اليوم من يملك حزاماً من ذهب لا يعاني قط من نقصان السمعة»^(٥٢).

هكذا لا تستطيع أية قيمة الصمود أمام يريق الثروة، إذ أن الفضيلة والأخلاق لم تعودا في العالم الجديد، حيث المال أساس الكيان

الاجتماعى ومصدر القيم، إلا وهما خالصاً. فلا عجب فى أن يكون "رامو" الفاسد البذئ صورة ممسوخة، ولكنها آمنة، للأوساط الاجتماعية الصاعدة:

«أنت لا تشك فى أننى أمثل، فى هذه اللحظة، الغالبية العظمى من أهل المدينة والحاشية. إن أثرياء البلد إما أنهم قد صارحوا أنفسهم أو أنهم لم يصارحوها بالأشياء نفسها التى أبحث لك بها. إلا أن المؤكد هو أن الحياة التى ساعيشها بدلاً منهم تمثلهم تماماً. هذا فى الوقت الذى ذهبتم فيه، أنتم الآخرون، إلى حد الاعتقاد بأن السعادة قد خلقت للجميع، وباله من تصور غريب!»^(٥٣).

وأنى للسعادة، فى عالم الاغتراب وضياح الإنسان، أن تعم الناس جميعاً، فحيث تسود روح المنفعة وتنفسى أنانية الفرد، لا يستطيع الإنسان أن يأترف إلى أخيه الإنسان، أو أن يرفع الحواجز التى تقوم بينه وبين بنى جنسه. من ثم تتحطم الذات المطمئنة، ويفقد الشعور المؤمن مطابقته لنفسه، واتساق وسائله مع غاياته، كما تتبلبل الأمور، وتضطرب القيم والمبادئ مع انبثاق الشعور الدنىء واغترابه فى صورة الآخر. وليس من شك، فى أن بلوغ هذا الشعور المهترئ إلى مستوى التعبير عن نفسه، عبر خطاب الجنون عند ديدرو، ليعد قمة التدهور والاضطراب فى حضارة العصر. إلا أن ديدرو، على الرغم من عبقرية الفذة، لم يستطع أن يتجاوز، كما يمكن أن يقال، ضمير عصره. لذلك

نراه، فى اغترابه هو نفسه فى صورة الحتمية والموضوعية اللتين رسمتهما له معارف وعلوم عصره، يطرح قضية الجنون ضمن إشكالية طبيعية غير مدرك للخلفية الأيديولوجية التى تطمسها - بالضرورة - كل المفاهيم التى تقوم على أرضية طبيعية.

يقول المعتوه: «إذا كانت الشهوة هى إحدى صفات الطبيعة، فإننى أعود دائماً إلى الشهوة، وإلى إحساسى المباشر، من ثم أرى أنه ليس من حسن النظام ألا يجد الإنسان زاده اليومى، بينما، اللعنة على شيطان الاقتصاد، يغص أناس بما عندهم من فائض، ولا يجد آخرون، لهم معدة ملحة مثلهم وجوع متجدد مثلهم، ما يضعونه تحت الضرر»^(٥٤).

إن الطبيعة - لاشك - ضرب من التطور الخبيث الذى يسمح بتجاوز الأبعاد الواقعية لقضية البؤس، ويسمح بطرح قضية الاغتراب والضياع فى حدود الحتمية البيولوجية. كما أن الطبيعة باستبعادها لصيرورة التاريخ وحركته المحررة، تضىفى على مجتمع الظلم والفساد طابع الثبات والسوية إلى درجة أن المعتوه نفسه، هذه السلبية الخالصة، يعتقد بوصوله، فى نهاية المطاف، إلى مرتبة الكينونة الكاملة، والحقيقة المتمتعة بكل كثافة الوجود الفعلى وركائز الهوية الثابتة. من ثم نراه يقول للفيلسوف فى لهجة ساخرة:

«ألا ترى حقاً أننى درماً كما أنا لا أتغير»^(٥٥).

هكذا تبقى، فى هذه الحلقة الخبيثة من التمزق والضياغ، أطراف التناقض والصراع كما هى، ثابتة لا تتحرك. فهى على الرغم من المواجهة المأسوية التى تربط بينها، لم تدخل فى صراع فعلى، ولم تنتظم فى عملية من التجاوز المبدع الخلاق. من ثم يردنا "الجنون" على أشلاء شخصية "رامو" وغير شخصية الفيلسوف المتعاطمة إلى مثالية المنطق العقلى، منطق الفضيلة والأخلاق المجردة، الأمر الذى لا يحررنا بقدر ما يدعم. ويثبت هذه الهوة التى تفصل دوماً بيننا وبين جنون الآخر. بعبارة أخرى، إن العقل والجنون لا يلتقيان فى هذا الحوار بقدر ما يحاذى أو يواجه أحدهما الآخر فى علاقة ظاهرية، إن جمعت بينهما فإنما تجمع بين نقيضين فى حلقة من التكامل المحتوم: تكامل العبد وسيد فى عالم الضياغ والاغتراب.

هوامش البحث

^(١) Michel Foucault, *Histoire de la Folie à L'Age Classique*, Paris, Gallimard, B.H., 1972.

^(٢) يمكن تعريف الجنون وفقاً لدراسة فوكو عن "المرض العقلى والشخصية" بأنه «مرض لا معنى له إلا فى إطار ثقافة ما». انظر كتابه:

Michel Foucault, *Maladie Mentale et Personnalité*, Paris, P.U.F., 1954, pp.66-80.

^(٣) المرجع السابق، ص ص ٣٣-٤٣.

Pierre Jacerme, *La Folie de Sophocle à l'Antipsychiatrie*, Paris, ^(١١)
Bordas, 1974, p. 14.

^(١٢) المرجع السابق، ص ص ١٦-١٧.

^(١٣) المرجع السابق، ص ص ١٧-٢٢.

Maud Mannoni, *Le Psychiatre, son "fou" et la Psychanalyse*, ^(١٤)
Paris, Ed. du Seuil, 1970.

^(١٥) المرجع السابق، ص ١٠.

^(١٦) المرجع السابق، ص ٢٢.

^(١٧) المرجع السابق، ص ٢٣.

A. Artaud, *Van Gogh, Le suicidé de la société*, Paris, 1947, ^(١٨)
p.10.

Mannoni, *Op. Cit.*, p. 28. ^(١٩)

^(٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٥.

Shoshana Felman, *La Folie et la Chose Littéraire*, Paris, Ed. du ^(٢١)
Seuil, 1978, pp. 37-55.

لقد لفتت نظرنا هذه الباحثة الأمريكية الأصل، إلى العلاقة بين الأدب والجنون حينما برهنت لنا أن محاولة فركو كتابة تاريخ فلسفي لظاهرة الجنون من منطلق الجنون نفسه، وليس بالحكم عليه من الخارج تعد أمراً مستحيلاً، لأن "اللاجوس" Logos يتعارض تعارضاً جذرياً مع ماهية الجنون إن كان له ماهية، بينما تكسب هذه المحاولة نفسها قلرة تعبيرية هائلة وكفاءة تأثيرية أعظم إذا فهمناها على أنها محاولة في أدب الجنون، وذلك لما للأدب من اتصال وثيق بمبدأ "الباتوس" Pathos أو القلرة على إحداث التأثير والانفعال.

Denis Diderot, *Le Neveu de Rameau*, Paris, ed. Sociales, 1972. ^(٢٢)

^(٢٣) عن مقدمة رولان ديسنييه، المرجع السابق، ص ٨٤.

Erasme, *Eloge de la Folie*. 1511. ^(٢٤)

René Descartes, *Méditations Métaphysiques, Première* ^(١٨)

Méditation, Paris, Cl. Larousse, p. 30.

D. Diderot, *Le Neveu, Op. Cit.*, p. 50. ^(١٩)

^(٢٠) المرجع السابق، ص ٩٠.

M. Foucault, *Hist. de la Folie*, p.368. ^(٢١)

^(٢٢) يقول جيرار دى نرفال فى بداية مؤلفه "اوريليا" متحدثاً عن العالم الخفى الذى يكتشفه

بدخله: «كأننى فى نفق غائم يغلفه الضياء رويداً رويداً، ثم تبتق فيه من أعماق الليل

والظلام وجوه شاحبة مهيبة كأنما تقطن عالم الأرواح الطاهرة. وتتشكل فى إثر ذلك

لوحة، ويضئ إشعاع جديد فى الوقت الذى تتحرك فيه أشباح غريبة: إن عالم الأرواح

يفتح أبوابه لنا». انظر:

G, de Nerval, *Aurelia*, Paris, J.Corti, p. 73.

M. Foucault, *Hist. de la Folie*, pp. 372-373. ^(٢٣)

^(٢٤) كانت الفوارق الاجتماعية صارمة فى الرواية الكلاسيكية، أما بالنسبة لرواية القرن

الثامن عشر، وعند ديدرو بالذات، فإن القيم الاجتماعية تنقلب رأساً على عقب. انظر

رواية الكاتب:

Jacques Le Fataliste.

Hegel, *La Phénoménologie de l'Esprit*, trad. de J. Hyppolite, ^(٢٥)

Paris, ed. du Seuil, 1947, t. II, p. 80.

^(٢٦) المرجع السابق، ص ٥٢ - ٦٢.

^(٢٧) المرجع السابق، ص ٦٢.

^(٢٨) المرجع السابق، ص ٧٥.

يقول لنا "رامو" بعد حادثة طرده من دار أرباب نعمته «إننى كنت، بالنسبة لهم، رامو

الصغير، رامو الوقح، المجنون، الجاهل، الكسول، المهرج، الحيوان الملعوف. ولم تكن أية

صفة من هذه الصفات الأليقة تلصق بى حتى أتاب عليها باتسامة أو مداعبة، أو ضربة

خفيفة على الكتفين، وأحياناً بصفعة أو دكلة أو قطعة من اللحم تلقى لى، أنشاء

الوجبات، في طبقى، أو بشيء من رفع الكلفة خارج الطعام، ولكن من غير أن يترتب على هذه الحرية أية التزامات، فأننا شخص لا يلتزم القوم بحاله بشيء، إن الناس تفعل بى ومعى وأمامى كل ما تريد من غير حرج. أف لى، لقد ضيبت كل شيء، من أين لى الآن كل تلك الهدايا الصغيرة، التى كانت تنساقط على كالمطر؟ إننى لأكلم كبير حقاً لقد فقدت كل شيء لأننى أردت، مرة واحدة فى حياتى، أه لو يعاودنى ذلك مرة أخرى، أن يكون لى، مثل بقية الناس، شيء من رجاحة العقل». انظر:

Diderot, *Le Neveu de Rameau*, p. 104.

Phénoménologie de l'Esprit, p. 76.

(٢١)

(٢٠) المرجع نفسه، ص ٧٧.

(٢١) المرجع نفسه، ص ٧٨.

(٢٢) المرجع نفسه، ص ٧٩.

(٢٣) المرجع نفسه، ص ٧٩.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ٨٠-٨٤.

(٢٥) يقول جان هيوليت فى كتابه المكسر لتفسير ظاهريات الروح عند هيجل:

«فى حوار "ابن أخ وامو" سوف نرى وصفاً للضمير الممزق وللحالة النفسية قبيل الثورة. إذ أن روح المدنية قد ظهر كلية على حقيقته، ولا تخلو مراحل الجدلية الهيكلية من الإشارة إلى التطور التاريخى الفعلى، فالدول الحديثة قد نشأت بدءاً من نظم إقطاعية، ولم تصبح ملكيات إلا بإحضار النبلاء والإقطاع إلى حد ما، والملكية المطلقة أخيراً، كما نراها فى فرنسا إبان حكم لويس الرابع عشر، هى المرحلة الأخيرة لهذا التطور، ومؤشر على الانحدار المقبل». انظر:

Jean Hyppolite, *Genèse et Structure de la Phénoménologie de l'Esprit*, Paris, Aubier Montaigne, 1946, 2 vol, t. II, p. 378.

(٢٦) يقول إيريك فيل: «إن الحرية لا تكون إيجابية أو فعالة إلا فى الحدود الموضوعية التى تكون فيها، عن وعى أم لا، متعلقة أو عالمية، فالحرية الفعلية ليست مجرد تعسف فرد، الأمر الذى يستحيل تصوره أو تحقيقه، وإنما هى تقرير للحرية الإنسانية بالقدر الذى

يقبل فيه الإنسان حرية الغير في إطار جماعة حرة.»

انظر: Eric Weil, Hegel et L'Etat, Paris, Vrin 1966, p. 36.

D. Diderot, Le Neveu de Rameau, p. 135. (٢٧)

(٢٨) المرجع نفسه، ص ١٠٤.

(٢٩) المرجع نفسه، ص ١٤٦.

(٣٠) لاحظ فوكو أن ماهية العقل في حوار "ابن أخ رامو" تلتخص في ملكيته للجنون

أو سيطرته عليه، بينما كانت عند ديكارت في تطابق هوية العقل مع ذاته، الأمر الذي يستبعد

الجنون من مجال العقل تمامًا. انظر: M. Foucault, Hist. de la Folie, p.366.

(٣١) مثل هذه الأرضية الفكرية هي التي تسمح بظهور أفكار أو نظرية مثل نظرية لومبروزو

عن المجرم والجريمة.

M. Foucault, Hist. de la Folie, p. 200. (٣٢)

(٣٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٢.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٢١٣.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ٣٦٩.

Diderot, Le Neveu de Rameau, p. 124. (٣٦)

(٣٧) المرجع نفسه، ص ١٢٣.

(٣٨) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

إن الحتمية الاجتماعية - كما تذهب فرانسواز فيكوز في المقدمة - سارية كذلك بالنسبة

للسادة. فهي وإن كانت تنتج طبيعة البائس أو "الطفيلي المغربة"، تنتج كذلك السلطة

المولدة للاغتراب إذ أن رجل المال "برتان" يحس عبر المرأة التي يقدمها له "رامو" بالدور

الذي يلغيه إليه هذا الأخير إلا أنه - للأسف - لا يملك الحكمة الكافية لمقاومة غواية

الاستبداد، التي تمثل أخطر أنواع الغرايات.

(٣٩) المرجع نفسه، ص ١٣٠.

(٤٠) المرجع نفسه، ص ١٣٩.

- (٥٠) المرجع نفسه، ص ١٣٩.
- (٥١) المرجع نفسه، ص ١٢١.
- (٥٢) المرجع نفسه، ص ١٢٢.
- (٥٣) المرجع نفسه، ص ١٢٥.
- (٥٤) المرجع نفسه، ص ١٨٦.
- (٥٥) المرجع نفسه، ص ١٩٢.

الفهرست

الصفحة

- تمهيد ٥
- جدلية الموت والحياة عند جورج بطاي ١١
- ميشيل فوكو : حياته وأعماله ٤٥
- خطاب الجنون عند ديدرو ٩٣

دار ومطابع المستقبل
بالقاهرة والإسكندرية
ومكتبة المعارف ببيروت



هذا الكتاب

نقدم فى هذا الكتاب دراسة تحليلية
لثلاثة من كبار مفكرى فرنسا وهم
ديدرو صاحب الموسوعة الفلسفية
الشهيرة. وجورج بطاي، وميشيل
فوكو، وما نطرحه بصدد بطاي هو
رؤيته الخاصة والمتميزة للعلاقات
الخفية التى تربط بين دفعات الحياة
وحتمية الموت، وبين موضوع
المحرمات ونقضها، وهى العلاقات
التي تقوم عليها جدلية الحضارات
عبر التاريخ.

أما دراستنا عن فوكو فتشغل
عرضا لحياته وتحليلا لمسيرته الفكرية
والنضالية ولأهم القضايا التى طرحها
وعلى رأسها الجنون والجنس والسجن
وعلاقة الذات والشعور بأنساق
الفكر.

وأخيرا نطرح عبر دراستنا عن
ديدرو قضية الجنون فى الأدب
الفرنسى، وما يتصل بهذه القضية من
رؤية ثورية ونقدية للمجتمع الفرنسى
قبل ثورة ١٧٨٩.

Bibliotheca Alexandrina



0283148

دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية

ومكتبة المعارف بببيروت